تفسير حسن الكلام

للشيخ أبي زكريا عبد السلام الرستمي

رحمه الله تعالى

شرح وتعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

محمد هشام طاهري

(حفظه الله تعالى)

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، أما بعد: **فبتوفيق من الله تعالىٰ وفضله سنبدأ بتفسير القرآن، وأوله تفسير سورة الفاتحة.**

اِعلم أنني قد عاهدت في تفسيري هذا، ولأية سورةٍ [من سور القرآن الكريم] سألتزم فيه ببيان أمور مهمة عدةٍ:

أولاً: بيان ربط السورة بما قبلها من السورة[١].

ثانيًا: بيان دعوىٰ السورة وموضوعها[٢].

ثالثًا: ذكر الخلاصة لمواضيع السورة ومحتوياتها علىٰ الإجمال والتفصيل.

رابعًا: شرح وتوضيح الألفاظ والجمل في كل آية، وبيان المعنىٰ المراد منها.

خامسًا: ذكر الحكم واللطائف والفوائد لكلمات القرآن الكريم، ولجمله، وآياته.

سادسًا: ذكر الأسماء الأخرىٰ لكل سورة لها أسماء كثيرة في بدايتها.

---

(١) هذا، ولم يتبع المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الترتيب في بيانه للأمور الستة هذه في جميع السور.

(٢) المعنىٰ لـ"دعوىٰ السورة" والمراد منها: الموضوع الأم، والغرض الأساس والمقصد الأصلي لها.

ربط السورة بما قبلها: لا داعي هنا وفي [بداية التفسير لـ]سورة الفاتحة إلىٰ ذكر ربط السورة بما قبلها؛ وذلك لعدم وجود أية سورة قبل السورة هذه في ترتيب المصحف؛ بل السورة هذه هي الأولىٰ [في المصحف]، وفي مقدمة السور كلها.

دعوىٰ السورة: هي إعلان توحيد الله تعالىٰ، والرد علىٰ الشرك بكل أنواعه، وذلك في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، والهدف مِن ذلك أن يعرف الإنسان ولا سيما المؤمنُ عظمةَ ربِّه، معرفةً لا يرىٰ تلك العظمة لأحدٍ غيرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بحيث يجد تعلقًا بربِّه، وشغفًا، ومحبَّةً له سبحانه، لا يجدها لأحد غيره.

خلاصة السورة:

أولاً: دعوىٰ إثبات التوحيد لله تعالىٰ: في الآية (١).

ثانيًا: إثبات تلك الدعوىٰ بأسماء الله تعالىٰ وصفاته، وهذه تسمىٰ الاستدلال بأسماء الله تعالىٰ وصفاته، وهذا نوعٌ مِن الاستدلال العقلي؛ فهذه ثلاثة أنواعٍ من الاستدلالات العقلية، وكلها في الآيات: (٢، ٣، ٤).

ثالثًا: نتيجة الدعوىٰ، وما يتفرع منها، وهذا في الآية (٥).

رابعًا: تعليم الدعاء لطلب الهداية إلىٰ التوحيد، وإلىٰ النتيجة لدعوىٰ التوحيد، والاستقامة علىٰ ذلك، وهذا في الآية (٦).

خامسًا: ذكر أصنافِ الناس الثلاثة، والتي لكل واحد منها موقفها الخاص بها تجاه تلك الدعوىٰ، والإذعان بها، وكل ذلك في الآية (٧).

الحكم والفوائد: إنَّ لكل كلمة مِن كلمات آيات القرآن، ولكل آية من آياتها، حكمًا وفوائدَ خاصّة بها، وهي كثيرة وعديدة سنذكر بعضها –بإذن الله تعالىٰ– في أثناء التفسير لها؛ لكني الآن هنا أذكر بعض تلك الحكم والفوائد التي تتعلق بالسورة ككل، والتي هي كخلاصة للسُّورة.

هذا، وسأذكر الحِكَم والفوائد هذه علىٰ مُخَمَّسَاتٍ –أي: كل خمسةٍ علىٰ حدة– وهي عشر مخمَّسات:

المخمَّس الأوّل: خمسة أقسامٍ متعلقة بمعرفة الله تعالىٰ:

١–معرفة ذات الله تعالىٰ في الآية (١).

٢–معرفة صفات الله تعالىٰ، في الآيتين (٢، ٣).

٣–معرفة حقوق الله تعالىٰ، في الآية (٤).

٤–معرفة الطريق الموصِل إلىٰ تلك الحقوق، في الآية (٥).

٥–معرفةُ أهل ذاك الطريق، وأولئك الذين يجب علينا اتباعهم، في الآيتين (٦، ٧).

المخمَّسُ الثّاني: خمسة أنواع من التوحيد:

١–توحيد ذات الله تعالىٰ، في الآية (١).

٢–توحيد الربوبية، في الآية (٢).

٣–توحيد الأسماء والصفات، في الآيتين (٣، ٤).

٤–توحيد الألوهية، في الآية (٥).

٥–توحيد الحاكمية والتشريع، في الآيتين (٦، ٧).

المخمَّسُ الثّالث: التّصريحُ بذكرِ خمسةِ أسماءٍ لله تعالىٰ:

١-اللهُ.

٢-الرَّبُّ.

٣-الرَّحمن.

٤-الرَّحيم.

٥-المالِك.

المخمَّسُ الرّابع: الإشارة إلىٰ خمسِ صفاتٍ لله تعالىٰ:

١-المحمُودُ.

٢-المعبودُ.

٣-المستَعَانُ.

٤-الهادي.

٥-اَلْمُنْعِمُ.

المخمَّسُ الخامس: ذكر خمس عبادات:

١-التَّسْمِيةُ.

٢-التَّحْمِيدُ.

٣-التَّعَبُّدُ.

٤-الاستِعَانَةُ.

٥-الدُّعَاءُ.

المخمَّسُ السّادس: الرَّدُّ علىٰ خمسةِ أصنافٍ مِن المنحرفين:

-المشركين بطوائفهم.

-القدرية، الجبرية، المرجئة، الروافض والشيعة.

-الفرق الضالة الخمسة الأخرىٰ.

-الدهريين بجميع أصنافهم.

-المنكرون للنبوة، والمنكرون للبعث، والمنكرون للقيامة، والمنكرون للصفات -أي: الجهمية-، والمبتدعة كلهم.

المخمَّسُ السّابع: ذكرُ خمسةِ فِرَقٍ، صالحة كانت أو طالحة:

١-الحامدون.

٢-العابدون.

٣-المنعَمِ عليهم.

٤-المغضوب عليهم.

٥-الضّالُّون.

المخمَّسُ الثّامن: خمس تخصيصاتٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

١-تخصيصه بالحمد.

٢-تخصيصه بالصفات.

٣-تخصيصه بالعبادة.

٤-تخصيصه بالاستعانة.

٥-تخصيصه بالهداية والإنعام.

المخمَّس التّاسع: ذكر خمسة أقسام من الجمل:

١-الجملة الخبرية بمعنىٰ الإنشاء: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

٢- الجملة الخبرية المحضة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

٣- الجملة الإنشائية المحضة: ﴿ٱهۡدِنَا﴾.

٤- الجملة الإسمية: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

٥- الجملة الفعلية: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

المخمَّسُ العاشر: أمور مُهِمّة خمسة -قد ذُكِرَتْ مِن قبل-:

١-الدَّعْوَىٰ.

٢-أدلّتها.

٣-النتيجة.

٤-الدُّعاء.

٥-الفرق الثلاثة.

هذا، والمخمسات هذه كلها تتعلق بالسّورة ككلّ، وهي كلها غير تلك المخمسات التي قد يجدها القارئ الكريم في كتاب "لطائف القرآن" -وقد طبع بالعربية والبشتو-.

أسماء السورة:

١. سورة الفاتحة.

٢. سورة الحمد.

٣. سورة الصلاة.

٤. سورة النور.

٥. أعظم سورة (السورة العظمىٰ).

٦. سورة الشفاء.

٧. سورة الرقية.

٨. سورة الواقية.

٩. سورة الوافية.

١٠. سورة الكافية.

١١. سورة الشافية.

١٢. سورة الكنز.

١٣. سورة تعليم المسألة.

١٤. السبع المثاني.

١٥. القرآن العظيم.

١٦. أساس القرآن.

١٧. سورة الشكر.

١٨. سورة المناجاة.

١٩. سورة التفويض.

٢٠. سورة السؤال.

٢١. أم الكتاب.

٢٢. أم القرآن.

هذا، والأسماء هذه قد ثبتت بالنقل، ولكلّ واحد منها وجه تسمية؛ كما بينها الألوسي في روح المعاني.[١]

(١) ملاحظة وتنبيه: ما أود قوله هنا، وفي نهاية التمهيد هذا: أن القارئ الكريم إن أحب معرفة المزيد في تفسير السورة فسيجد ذلك حتما في تفسيري الموسع للسورة في كل من مؤلفاتي الثلاثة:

أ- التبيان في تفسير أم القرآن- بالعربية.

ب- لطائف القرآن- بالعربية.

ت- ترجمة لطائف القرآن - بالبشتو.

وكل ذلك؛ لأني قد ذكرت بعض الموضوعات في تفسيري هذا مختصرا بخلاف تلك الكتب الثلاثة؛ فمثلا: المخمسات المتعلقة بالسورة، قد ذكرتها هنا (١٠) مخمساتٍ، حال كونها في كتاب "لطائف القرآن" قد وصلت إلىٰ (١٣) مخمسا ... وهلم جرا.

التفسير

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: قد اختلف أهلُ العلم حولَ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: هل هي آية مستقلة بذاتها أم لا؟ وهل هي جزء من أجزاء سورة الفاتحة أم لا؟ وكذلك هل هي جزء لكل سورة ذكرت هي في أولها أم لا؟

أقول: قد بينتُ هذه الأقوال في "التبيان في تفسير أم القرآن" بشيء من التفصيل؛ لكني [ألخصها هنا و] أقول: إن المتبادر أنّ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قد نزلت [مكررة، و] في بداية كل سورة، إلا سورة التوبة؛ فينبغي ألا تترك عند التلاوة [في تلكم السور][1]، رغمَ أَنَّنا نُسَلِّم بوجود الاختلاف في قراءتها جهراً أو خُفْيَةً.

شرح كلمات البسملة:

حرف الباء مِن حروف المعاني، ويقوم بعملية الجر؛ فالأولىٰ فيه أنّه للاستعانة، ولما كان مِن أسماء السورة "تعليم المسألة" والمراد منه: أن الله تعالىٰ يعَلِّم عباده المسألة؛ فبناء عليه فإن المقدر هنا كلمة "قولوا" في أولها، ويصير بذلك معناها: "يا عبادي قولوا: بسم الله.."، وهذا يشير بأن العباد كلهم محتاجون لله تعالىٰ في مسألة الاستعانة، و[بهذا يثبت] أن في الحرف الأول للسورة ردًّا علىٰ الشّرك في الاستعانة، كما ورد في رواية لابن جرير: أنّ هذا قد نزل ردًّا علىٰ المشركين حيث كانوا يقولون: "بسم اللات"، و"بسم العُزَّىٰ"، فأمرهم الله تعالىٰ أن يقولوا: "بسم الله".

(١) نهاية ص٣/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

"اسم": الاسم قد يكون عَلَمًا، وقد يكون صِفَةً، وقد يكون عاماً في كلتا حالتيه، وهو عام هنا يشمل جميع أسماء الله تعالىٰ وصفاته، وهذا يعني: أنه يجوز عند الاستعانة ذِكْرُ أيِّ اسمٍ أو صِفَةٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وكذلك لقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

هذا، وطلب العون لا يكون إلا باللسان، وما يذكر باللسان يقال له: إنَّه الاسم، فلأجل ذلك قال ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (بالله).

﴿بِسْمِ﴾: جارٌ ومجرورٌ، بحاجة إلىٰ عاملٍ، ولم يُذْكَر العامل فلا بد مِن تقديره، وفيه الاختلاف، ولا بأس بذلك لاحتماله كلَّ وجهٍ مِن تلك الوجوه: "أَبْدَأُ"، "أَبْتَدِأُ"، "اِبْتِدَائِي"، "أَقْرَأُ"؛ لكنّ الأولىٰ أن يقال: تقديره كلمة "استعينوا" أو "اِسْتَعِنْ"؛ وهذا عام يدخل فيه كل عمل يريد العبد القيام به، مِن: قراءةٍ، أو أكل، أو شربٍ، أو غير ذلك من الأعمال.

هذا، ولابد من كون العمل مقصودًا بعد قول: "بسم الله"؛ كما أن تقديم الجار والمجرور علىٰ العامل يفيد الاختصاصَ والحصرَ، ويكون المعنىٰ عند ذلك أن الاستعانة مختصة بأسماء الله وصفاته، وأن الشرك في كل ذلك باطل ومردود.

﴿ٱللَّهِ﴾: اسمٌ خاصٌّ للهِ تعالىٰ وعَلَمٌ له، وهو موصوفٌ به؛ لكنَّه لا يقع كصفةٍ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يطلق علىٰ أحدٍ سواه، واختلف أهل العلم في لفظة "الله" أمشتقة هي أم جامدة؟ فإن كان مشتقاً فما مبدؤه وما مصدره؟!

نعم، اختلفوا؛ لكن لكلٍّ أدلته[١]، والراجح أنّ لفظة "الله" باعتبارها اللغوي لفظة مشتقة، وباعتبار العلمية -اسمٌ خاص لله تعالىٰ- فغير مشتقة.

ولفظة "الله" أصلها "إِلـهٌ/ اَلْإِلَـهُ"، والألف واللام رغم أنهما زائدتان لكنهما لازمتان لها؛ ففي مبدأ لفظة "الله" اختلاف كثير، وبناء علىٰ اختلافهم في ذلك اختلفوا في معناها أيضـًا، والنتيجة لكل ذلك أنّ لكلمة "الإلـه" معناها الخاص بها في الشرع، وهو "المعبود بحق"، وهو المعنىٰ المراد منها في قول "لا إله إلا الله"، وفي مقام التوحيد عند ذكرها كذلك.

هذا، وإنَّ لِهذه اللَّفظة معناها العامة كذلك، وهو "المالكُ، المتصرِّفُ للكون كلّه"، وهو "الصَّمد، السَّندُ، والمعتَمَدُ الحقيقي، والقاضي للحاجات، والمدبِّرُ للخلق، ولأمورهم أجمع"، وهذا المعنىٰ المراد منها في آيات قرآنية كثيرة: كالآيات (٦٠-٦٤) من سورة النمل، والآيتين: (٧١-٧٢) مِن سورة القصص، وكذلك الآية (٤٦) مِن سورة الأنعام.

وبناءً علىٰ هذا قال ابن القيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنّ هذا الاسم -أي: الله- مُسْتَلْزِمٌ لمعاني الأسماء الحسنىٰ كلّها، ويدل علىٰ الأسماء الحسنىٰ كلها؛ وبهذا يكون في لفظ "الله" إجمال، والأسماء الحسنىٰ الأخرىٰ فتفصيل له"[٢].

---

(١) نهاية ص٤/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) بدائع التفسير (١/ ١٣٩). المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المعنىٰ العام لها أيضا: "إنّ أيّ شيءٍ تعتمد عليه أنتَ، وتخاف منه، وترجوه، وتحسبه المختار في النفع والضّرّ؛ فهذا هو الإلهُ لكَ، وهذا المعنىٰ نراه في "لا إله إلا الله" أيضا"(١).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: صيغتانِ للمبالغة في الفاعلية، مأخوذ من الرحمة؛ لكنَّ الرَّحمةَ قسمان: قسمٌ يتعلَّق بصفات الله تعالىٰ، وقسم آخر يتعلق بصفات المخلوقين؛ والقاعدةُ العامّة تقول: إنَّه قد يوجد التَّشابُه اللَّفظيُّ بين صفات الله تعالىٰ وصفات المخلوقين؛ لكنْ لا يوجد بينهما تشابُهٌ ولا تماثُلٌ في المعنىٰ والمقصود، وذلك لقوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١]، ولقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص]، ولقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧٤﴾ [سورة النحل: ٧٤]؛ كما أنّ القاعدة هي: **أنَّ صفات الله تعالىٰ كلها بمعناها الحقيقي**، والقول بالمجاز فيها باطل قطعاً، وعلىٰ هذا كان المعنىٰ الحقيقي للرحمة مِن الله تعالىٰ [وهو مِن صفات الأفعال ضدّ الشّدّة والغلظة، ويجب إثبات لازم هذه الصفة من]؛ التفضُّل، والإحسان، والإنعام، دونَ عِوَضٍ أو غَرَضٍ، [وهذا من رحمته تعالىٰ](٢).

وأمّا المعنىٰ اللغوي للرّحمة في المخلوقِ فهو: رقة القلب، ولينه.

و[علىٰ هذا] فإنّ قول بعض المفسرين الذين يقولون بأنّ هذه الصفة لله تعالىٰ باعتبار غايتها لا باعتبار مبدئها، باطل؛ لأنّ هذا المعنىٰ نوعٌ من المجاز، والقول به يستلزم النقص

---

(١) الفتح الرباني: ص ٥٢، وص٥٧. المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) نهاية ص٥ / ١ من الأصل بلغة البشتو.

الكبير في صفات الله تعالىٰ، ولذا نقول بأنّ معنىٰ الرحمن الرحيم هو: أنّ المالك المعطي لكل نعمة وإحسانٍ وفضلٍ وخيرٍ وبركةٍ هو الله سبحانه، وذلك من رحمته تعالىٰ.

الفرق بين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾:

بناء علىٰ الفرق بين كلمتي الرّحمن والرّحيم في المبنىٰ فثمَّ فرقٌ بَيِّنٌ بينهما في المعنىٰ، وعلىٰ وجوهٍ عدّةٍ ذكرها المفسرون:

١- أنّ الرَّحمن مُتعلِّقٌ بجميع الخلق، ولهذا جاء مع الاستواء علىٰ العرش ذِكْرُ الرَّحمن؛ لأنّ الاستواء متعلِّقه جميعُ الخلق، أما الرَّحيم فمتعلِّقٌ علىٰ وجه الخصوص بالمؤمنين؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وهذا القول قد اختاره ابن جرير.

٢- أنّ الرَّحمن يدل علىٰ معنىٰ إعطائه النِّعَم، أمّا الرّحيم فمُسْتَعْمَلٌ في دفعه العذاب والمصائب والنِّقَم، كما جاء في الآية (١٦) من سورة الأنعام، وفي الآية (٩) مِن سورة غافر.

٣- أنّ الرّحمن هو المعطِي لِنَعَمِ الدُّنيا، أمّا الرّحيم فهو المعطي لِنَعَمِ الآخرة، وهذا القول قد اختاره الفرّاء.

٤- أنَّ الرّحمن يدلُّ علىٰ سِعَة الرّحمة، أما الرَّحيم فيدلّ علىٰ لزوم الرّحمة، وقد جاءت الإشارة إلىٰ هذا في الآية (١٥٦) مِن سورة الأعراف، والآية (٧) من سورة غافر، كما ذكر لزوم الرحمة في الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

٥- أنّ الرّحمن يدلّ علىٰ النِّعَم الكبيرة، أما الرّحيم فيدلُّ علىٰ النعم الصغيرة.

٦- أنّ الرّحمن يتعلق بأهل السماء، أما الرّحيم فيتعلق بأهل الأرض.

٧- أنَّ الرّحمن هو الّذي يعطي من سأله مسألته، وأمّا الرّحيم فهو الذي يعطيهم ولو من غير مسألة.

٨- أنّ الرّحمن يدل علىٰ تعدد الرَّحمات منه سبحانه، أمّا الرّحيم فيدل علىٰ تكرّر الرّحمة منه تعالىٰ، ذكر هذا القول أبو حيان [في تفسيره البحر المحيط].

٩- أنّ الرّحمن هو الّذي إذا سُئِلَ مسألة أو حاجة فَرِحَ بها[١]، وقضاها، أمّا الرّحيم فهو الذي إذا لم يُسْئَل سَخِطَ وَغَضِب.

تنبيه: لا يجوز إطلاق كلمة "رَحْمن" علىٰ غير الله تعالىٰ؛ قال ذلك وكتبه المفسرون كلهم؛ كابن كثير، وابن جرير، والقرطبي، والإمام الراغب [الأصبهاني]، وغيرهم؛ لكن يجوز إطلاق كلمة "رحيم" علىٰ المخلوقِ، وباعتبار التّشابه اللفظي صِفَةً للمخلوق؛ كما جاء في الآية (١٢٨) من سورة التوبة في صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَمَّا لَمْ يجز إطلاقُ كلمة "الله" وكلمة "رحمن" علىٰ غيرِ الله تعالىٰ لأجل ذلك ذكرهما الله تعالىٰ معًا [وفي سياق واحد].

فوائد متعلقة بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾:

١- أنّ أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ كثيرة؛ وتخصيص الذِّكْرِ بهذه الأسماء الثلاثة للهِ تعالىٰ، والاكتفاء بها في البسملة؛ لأنّ لفظ الجلالة "الله" مُستَجْمِعٌ لجميع أسمائِه تعالىٰ،

---

(١) نهاية ص٦/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

ومُسْتَلْزِمٌ لـ[معانيـ]ـها، ولَمَّا لم يكن يمكن سرد تلك الأسماء كلّها في البسملة فاكتفىٰ بدلاً مِن سرد كل تلك الأسماء بذكر [لفظ الجلالة] "الله"، وكذلك لَمّا كانت صفاتُ الله تعالىٰ، بعضها لـجمالِه تعالىٰ ورحمته، وبعضها لـجلالِه تعالىٰ وجبروته وغضبه؛ وأيضًا لَمَّا كانت الاستعانة تناسبها صفات الجمال والرحمة، فاكْتُفِي هنا بذكر "الرحمن الرحيم"، وكأنّ هذا لجعلِ صفات الله تعالىٰ وسيلة لمسألته تعالىٰ، وطلب العون منه سبحانه.

٢- لَمّا كان المقصد الأصلي [للسورة] يَكْمُن في كلمة: "الحمد لله"، وكانت الاستعانةُ بأسمائه تعالىٰ وسيلة، والوسائل تكون مقدَّمة علىٰ المقاصد؛ فلأجل ذلك قُدِّمَتِ البسملةُ علىٰ التحميد له تعالىٰ.

٣- ذَكَرَ السيوطي في الإتقان [في علوم القرآن]؛ كما ذكر غيره مِن أهل العلم: أنَّ البسملة خلاصة للقرآن كله، وإحدىٰ وجوه ذلك أنّ المقصد العام للقرآن هو إثبات حاجة الخلق إلىٰ الله تعالىٰ، ولزوم استعانتهم به تعالىٰ بما يوافق التوحيد، والحال أنّ حرف الباء في كلمة "بسم الله" للاستعانة؛ فبذلك قد دلت البسملة وفي مطلعها علىٰ المقصد الأصلي للقرآن الكريم.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: هي دعوىٰ السُّورة، وقضيتها الكبرىٰ التي تريد إِثْبَاتَها، والغرضُ منها هي: الرد علىٰ الشّرك بكل أنواعه، والرد علىٰ المشركين بجميع طوائفهم، ووجه ذلك أنّ المبتدأ–وهو الحمد– مُعَرَّفٌ بـ"ال" وكذلك خبره "للهِ"، ولامُ الجر[1] لِلتّخصيص، ومعنىٰ

(١) نهاية ص٧/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

ذلك كله أنّ الحمدَ للهِ تعالىٰ، لا لغيرِه مِن نبيٍّ، أو مَلَكٍ، أو وَلِيٍّ مِن إنسٍ أو جِنٍّ، أو صنمٍ، وغيره.

وقد وردت هذه الكلمةُ [الحمدُ لله] كرّاتٍ ومرّاتٍ عديدةٍ في القرآن الكريم، ففي مطلع (٥) سُوَرٍ: سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر، ووَرَدَت أيضـًا بنفس اللفظ في (١٨) آية [في أواسط السور القرآنية][(١)].

ووردت بصيغة "له الحمد" في كلٍّ مِن: الآية (١٨) من سورة الروم، والآية (١) من سورة سبأ، والآية (٧٠) من سورة القصص، وكذلك الآية (١) من سورة التغابن.

ووردت بصيغة "فللّهِ الحمد" في الآية (٣٦) من سورة الجاثية، وهذه الصيغة تدل علىٰ التخصيص أيضـًا، تخصيص الحمد لله تعالىٰ لتقديم الخبر فيها علىٰ المبتدأ.

---

(١) بعض الآيات القرآنية الدالة علىٰ الموضوع:

أ- ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الآية (٤٣) من سورة الأعراف.

ب- ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ الآية (١٠) من سورة يونس.

ت- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي﴾ من الآية (٣٩) من سورة إبراهيم، وفي مواضع أخرىٰ.

وكذلك جاء صيغة "قل الحمد لله" الّتي فيها أَمْرُ النّبيّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقول ذلك وإبلاغه، فقد وردت في (٦) آيات كريمة[١]؛ فقراءة ذلك واجبة، وكذلك إبلاغه.

"ال" في كلمة الحمد: الألف واللام في كلمة الحمد إمّا للجنس وإمّا للعهد؛ لأنّ علماء اللغة وكذلك الأصوليين من الفقهاء يقولون: إنّ الجنس والعهد هما المعنىٰ الحقيقي لـ "ال"، وما دام يمكن حمله علىٰ الحقيقة لا يجوز حمله علىٰ المجاز.

سؤال: إن قيل: إنّ "ال" للجنس يكون المراد منه الماهية، وماهية الحمد -مطلق التحميد- قد توجد في المخلوق، وتستعمل له كذلك؛ فكيف يصح بذلك دعوىٰ اختصاص الحمد لله تعالىٰ، وحصره له سبحانه؟

الجواب: إن المراد مِن الحمد ههنا ماهيَّته الشَّرعية؛ كما سيأتي بيانه لاحقًا، وبإذن الله تعالىٰ، والحمدُ بماهيَّته الشَّرعية مختص بالله تعالىٰ وحقٌّ له.

سؤال: "اَلْ" العهدية يكون صحيحا عندما يكون له فرد معهودٌ في الخارج، فكيف الحمد ههنا يكون معهودًا [ولم يذكر في الكلام من قبل] ؟!

---

(١) نص الآيات الكريمة:

أ- ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ من الآية (١١١) من سورة الاسراء.

ب- ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ من الآية (٥٩) من سورة النمل.

ت- ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ من الآية (٩٣) من سورة النمل.

ث- ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ من الآية (٦٣) من سورة العنكبوت.

ج- ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ من الآية (٢٥) من سورة لقمان.

ح- ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ من الآية (٢٨) من سورة المؤمنون. لكن الآية الأخيرة، الخطاب فيها للنبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا للنبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الجواب: الحمد المعهود، هو حمد الله المذكور في القرآن، وفي الأحاديث الصحيحة، وذاك حمدٌ شرعيٌّ؛ ولأجل ذلك أشير إليه ههنا بـ "ال" العهدية، وهذا المعنىٰ يرجع إلىٰ المعنىٰ الأول له.

هذا، ويحتمل أن يكون "اَلْ" في كلمة "الحمد" للاستغراق كذلك، فيشمل جميع أفراد الحمد الشَّرعي عامة، [ودون أيّ استثناء]، وهذا القول قد اختاره ابن كثير لحديث اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله".

معنىٰ الحمد: المعنىٰ اللُّغوي للحمد في العربيّة هو: "الثناء الجميل بالجميل الاختياري"، ويُعَبَّر عنه في اللغة الفارسية بـ "سُتُودَن" و"سِتَايِشْ كَرْدَنْ"، وبلغة البشتو: "سْتَايِنَهْ كَوُلْ".

وفي الاصطلاح الشرعي: هو الثناء الجميل علىٰ الله تعالىٰ -قولاً وعملاً واعتقاداً- بأسمائه تعالىٰ، وصفاته التي وصف بها نفسه[1] في القرآن الكريم، أو وصفه بها نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأحاديث الصحيحة الثابتة عنه.

هذا، وسبيل معرفة الأسماء والصفات هو النّظر في سُوَرِ القرآن سورةً سورةً، وجَمْعُ ما ذُكِرَت فيها مِن أسماء لله تعالىٰ، وصفاتٍ فعلية، وهذا هو الذِّكْرُ باللسان، وأما الاعتقاد بها [أي: بالأسماء والصفات] فهو تخصيص الحمد له تعالىٰ؛ كما ترىٰ في هذه السورة: خمسة أسماءٍ صرّحت بها، وخمس صفاتٍ أشارت إليها، تحميداً له تعالىٰ -كما مضىٰ ذِكْرُه في

(١) نهاية ص٨ / ١ من الأصل بلغة البشتو.

المخمَّسات-، وكذلك وردت في سورة البقرة خمسُ صفاتٍ فِعليّة له سبحانه في الآيتين (٢١،٢٢) منها، وثماني صفات له أيضا في الآيتين (٢٨،٢٩) منها، كلُّ هذا علىٰ سبيل المثال؛ فبقراءة القرآن سورة سورة، وبالنظر في آياته كلّها يظهر لنا عددٌ لا حصر لها من أسماءِ الله تعالىٰ وصفاته.

ثمّ اعْلَم أنّ هذه الأسماء والصفات قد يعبر عنها بـ"صفات الألوهية"، فقد روي عن ابن عباس في روايةٍ مِن تفسيره أنّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد قال في معنىٰ الحمد: "الوحدانية والألوهية لله وحده".

هذا، وصفات الألوهية هذه رغم كثرتها ترجع كلّها إلىٰ صفتين اثنتين:

الأولىٰ منهما: هي أنّ العلم بالأشياء كلها، وبالأمور جميعها، وعلىٰ الدوام، وفي كل الأوقات والأزمان، للهِ تعالىٰ.

والثانية: هي أنّ التّصرف في الأشياء كلها، والتّدبير لها، ولجميع الكون، والقدرة الحقيقية، والكاملة علىٰ كل ذلك، هو لله تعالىٰ أيضا.

هذا، وقد وردت هاتان الصفتان في الآية (١٢) من سورة الطلاق، وكذلك [في سور قرآنية عديدة أخرىٰ]؛ وقد لا تجد سورة تذكر الأدلة العقلية أو تشير إليها تخلو من ذكرٍ لهاتين الصفتين.

نعم، قد وصلنا هنا -وبعد هذا التفصيل- إلىٰ المعنىٰ النهائي لـ"الحمد لله" وهو: "أنّ صفات الألوهية كلها، والمحامد بأجمعها مختصٌّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ"، وهذا معناه أنّ الله تعالىٰ له الاختيار كله، والتصرف كله، والقدرة كلها، وهو مختص بعلم الغيب، وعلم كل

شيء، لا يشاركه سبحانه في هذه الصفات أحدٌ مِن خلقه؛ لا نبي، ولا ولي، ولا جني، ولا إنسي، ولا غير ذلك.

وهذا ردٌّ علىٰ المشركين بطوائفهم كلها، وعلىٰ الشرك بأنواعه كله؛ ووجه ذلك أنّ أيّ مشرك يعبد غير الله تعالىٰ، يطلب منه -أي من غير الله- حاجته، وينذر باسمه، ويتوكل عليه، ويرجو منه النفع والضر؛ فلا بد أنّه يثبت له القدرة والتصرف العام، ويعتقد أنّه يعلم الغيب؛ كما أنّه يَحْمَدُ هذا المعبود، ويصفه بأنّه "المختار لكل شيء"، وأنّه "الغوث الأعظم"، وأنه "الحاضر الناظر"، وأنه "عالم بالغيب"!؟

فعلىٰ ذلك لما يقال: "الحمد لله" يعني هذا القول: أن صفات الألوهية هذه[1] تخص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمشركون لِم يصفون بها آلهتهم ويعتقدون أنها لهم؟!

﴿لِلَّهِ﴾: حرف اللام في أوّل "لِلّهِ" يُفيد التّخصيص، وأما لفظ "الله" فَذُكِرَ [ولم تُذكر غيره من أسمائه تعالىٰ]؛ لأنّ "الحمدَ" وصفٌ ولا بد للوصف مِن ذاتٍ موصوفٍ بها، فـ"الله" هو الاسم الدال علىٰ تلكم الذات الموصوفة بتلك الصفات، فالمحامد تخصه هو، هذا وجه.

والوجه الآخر: أنّ بقيّة الأسماء له تعالىٰ، ولكن باعتبار معناها اللغوي قد تحتمل الشراكة [لغيره تعالىٰ]؛ لكنّ كلمة "الله" لا تحتمل أي احتمال لتلك الشراكة.

---

(١) نهاية ص٩/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

أمّا أنه تعالىٰ قال: "الحمد لله"، ولم يقل هنا: "سبحان الله"، أو "الشكر لله"، أو "المدح لله"؛ فوجه ذلك: أنّ كلمة "الحمد لله" أعمّ وأشمل وأفضل مما سواها من الكلمات، وهذا لأنّ إثبات الصفات الثبوتية له تعالىٰ يستلزم نفي الصفات السلبية له تعالىٰ، فبذلك قد تضمنت "الحمدُ لله" "سبحانَ الله"، وهذا ما أشير إليه في الحديث الصحيح: «**سُبْحَانَ اللهِ نِصْفُ الْمِيزَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُهُ**»[1].

أما رجحان "الحمد لله" علىٰ "الشكر لله" فلوجوهٍ عِدَّة؛ منها:

١) أنّ الطريقة المفضلة لأداء شكر الله تعالىٰ هو قول: "الحمد لله".

٢) أنّ في معنىٰ الشّكر يكمن تقابله النّعمة، والحمدُ أعم من ذلك، سواءٌ كان في مقابل النعمة أم لا.

٣) أنّ الشّكر لا يكمن فيه كل محاسن المشكور، أما الحمد فيكمن فيه جميع صفات الكمال، وكل المحاسن للمحمود.

كذلك رجحان "الحمد لله" علىٰ "المدح لله" لوجوه كثيرة؛ منها:

١) أنّ "الحمد" مختص لبيان محاسن الأحياء، أما "المدح" فيعم الجميع الأحياء والأموات، وكذلك الجماد؛ والحال أن الله تعالىٰ هو الحي القيوم فتناسبه كلمة الحمد أكثر من غيرها.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٠/ ٢٩٠) ح (١٨٢٨٧). ولفظه (سُبْحَانَ اللهِ نِصْفُ الْمِيزَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ)

٢) أنّ "المدح" يقابل الأفعال اللاإرادية، لكنّ "الحمد" يقابل الأفعال الإراديّة؛ والله تعالىٰ صفاته وأفعاله كلها اختيارية إراديّة، فَعُلِمَ أنَّ الذي يناسبه مِن هاتين الكلمتين هي "الحمد لله".

تنبيه: نستطيع أن نرد بـ"الحمد لله" علىٰ الفرق التي تنكر صفات الله تعالىٰ؛ كالمعتزلة، والجهمية، وكذلك علىٰ الذين يُشَبِّهُون صفاته تعالىٰ بالمخلوقين.

هذا، وجملة "الحمد لله" جملةٌ خبرية لفظا؛ لكنها جملة إنشائية معنىٰ؛ لأن الذي يثني علىٰ الله ويحمده يقول "الحمد لله"، وهذا ثناءٌ صحيح منه وكامل، لا يقول له أحد إنه [بقوله "الحمد لله"] أخبر أنّ الحمد لله تعالىٰ.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفةٌ للهِ تعالىٰ، وهي الدليل الأول لإثبات الدعوىٰ السابقة؛ وهذا لأن مِن قواعد اللغة العربية أن الحكم الذي يتعلق في الجملة بموصوف[1] الصفة فهذه الصفة تكون علة ودليلا لذلك الحكم؛ ووجه الاستدلال في ذلك هو أن العالم بأجمعه في نمائه وتربيته وحفظه مفتقرٌ ومحتاج إلىٰ الله تعالىٰ؛ فهو الخالق والمالك والرازق والمدبِّر والمصلح والحافظ لجميع المخلوقات؛ فيلزم مِن هذا كله أنه يستحق الألوهية، وجميعَ الصفات المتعلقة بها، وذلك له وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا الدليل عقلي؛ لأن أصحاب العقول السليمة يسلّمون بأن الله تعالىٰ هو الرب للعالم أجمع؛ وذلك بدليل الآية (٨٦، ٨٧) من سورة المؤمنون. ويقال لهذا أيضا الاستدلال بأسماء الله تعالىٰ وصفاته.

---

(١) نهاية ص١٠/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

﴿رَبِّ﴾: صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِن التَّربية، أو مصدرٌ مَبْنِيٌّ للفاعل، والتربية في الأصل: "إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلىٰ حد التّمام"، كما قال الراغب، وكذلك "تبليغ الشيء إلىٰ كماله شيئًا فشيئًا"، كما قال البيضاوي، فظهر جليًا مِن هذا أنّ "التربية" مُرَكَّبَةٌ مِن جزئين اثنين؛ هما:

(١) خَلْقُ ما به النّماء؛ كالمطر، وما يؤكل، وما يشرب من الأشياء، والسّماء والأرض، والنّبات والشجر والثمرات، وغيرها، وكذلك خَلْقُ وسائل الأكل والشرب، وإيجاد آلاتهما؛ كخَلْقِ الفّمِ والشَّفتين واللّسان، والأسنان، والمرِي، والمعِدَة، وغيرها للإنسان.

(٢) إيجاد الأثر في تلك الوسائل والآلات: أي: خَلْقُ الشَّبَعِ [والرِّيِّ] بعد الأكل والشرب، وتنمية الجسم والصحة؛ فيقال لمجموع ذلك كله: "تربية" و"ربوبية".

وهذا المعنىٰ لكلمة الـ "رب" قد ذُكِرَ وبالتفصيل في مواضع عدة في القرآن الكريم؛ منها: سورة الشعراء من الآية (٧٨-٨٢)، وسورة الواقعة مِن الآية (٥٨-٧٣) ، وسورة عبس من الآية (١٨-٣٢)، وسورة البقرة الآيتان (٢١-٢٢)؛ حيث ذكرت فيهما العناصر المهمة، والظاهرة، لكلمة الـ "رب"، ولصفة "الربوبية" لله تعالىٰ؛ كخلق الأرض والسماء، والمطر والنبات، وخلق الإنسان.

الـ "رَبّ": لكلمة الـ "رب" في اللغة العربية معانٍ كثيرة؛ منها: المالك، السيد، الحاكم، المنتظم، المصلح، الجامع، المربي، الْمُنَمِّي، الْمُحَوِّلُ مِن حال إلىٰ حال، المعبود، المنعم؛ كما ذكرها العلماء [في بعض المصنفات كـ:] لسان العرب، وقاموس، وتفسير القرطبي، وغيرها.

معاني كلمة الـ "رَبّ" في القرآن: قد استعملت كلمة "رَبّ" في القرآن الكريم لمعان عدّة:

بمعنىٰ "السيد، والمولي"؛ كما في الآية (٤٢) من سورة يوسف.

وبمعنىٰ "المالك"؛ كما في الآية (٩١) من سورة النمل، والآية (٣) من سورة قريش.

وبمعنىٰ "المصلح، والناصح"؛ كما في الآية (٣٤) من سورة هود.

وبمعنىٰ "الحاكم" -أي الذي بيده الحكم-؛ كما في الآية (٦٤) من سورة آل عمران، والآية (٣١) من التوبة.

وبمعنىٰ "الْمُرَبِّي"؛ كما في الآية (٢١) من سورة البقرة.

وبمعنىٰ "المعبود"؛ كما في[1] الآية (٥١) من سورة آل عمران، وفي الآية (٨٠) منها.

هذا، والمعاني هذه كلها صحيحة في حقّ الله تعالىٰ، أمّا في حق المخلوق فلا يجوز نسبة كلٍّ مِن: "الحاكم، والمالك، والمعبود" علىٰ إطلاقها، فإنها شرك، كما في الآية (٦٤) والآية (٨٠) من سورة آل عمران، وكذلك في الآية (٣٩) من سورة يوسف.

ولذلك اتفق المفسرون [وغيرهم من علماء اللغة]؛ كابن كثير، والقرطبي، وابن الجوزي، و[الفيروز آبادي] صاحب القاموس، و[ابن منظور] صاحب لسان العرب، وغيرهم-علىٰ أنَّه يحرم إطلاق كلمة الـ "رب" وبدون الإضافة الخاصة لغير الله تعالىٰ.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمعُ عالَم، والعالَم في اللغة: كل شيء يُعْلَمُ به آخر، بمعنىٰ العلامة له.

---

(١) نهاية ص١١/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

هذا، والعالم في العرف العام يطلق علىٰ كلّ ما سوىٰ الله تعالىٰ من الأشياء، كالملائكة، والإنس، والجن، والحيوان، والجماد، والنبات، والسماوات، والأرض، وغيرها، وقد ورد هذا المعنىٰ لـ "العالمين" في الآية (٢٤) من سورة الشعراء، وفي الآية (٢٦) منها، وكذلك الآية (٢٨) منها، ولهذا الوجه قد وردت "كل شيء" مكان "العالمين" في الآية (١٦٤) من سورة الأنعام.

هذا، وقد ترد كلمة "العالمين" ويراد منها "الإنس" و"الجن" فقط؛ كما وردت في الآية (١) من سورة الفرقان.

وكلمة "رَبّ" جاءت مضافةً إلىٰ "العالمين"، ومضافةً إلىٰ بعضٍ مِن العالمين، وأفرادٍ منه؛ كما نرىٰ ذلك في كلٍّ مِن [المواضع التالية مثلا]: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[١]، و﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ﴾[٢]، و﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[٣]، و﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾[٤]، و﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾[٥]، و﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾[٦]، و﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾[٧]، و﴿ رَبِّ

(١) كالآيات (١٢٠، ١٢١، ١٢٢) من سورة الأعراف.

(٢) الآية (١٢٩) من سورة التوبة.

(٣) الآية (٦٥) من سورة مريم.

(٤) الآية (٨) من سورة الدخان.

(٥) الآية (٩) من سورة المزمل.

(٦) الآية (٤٠) من سورة المعارج.

(٧) الآية (١٧) من سورة الرحمن.

ٱلْعِزَّةِ ﴾[١]، و﴿ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾[٢]، و﴿ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾[٣]، و﴿ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾[٤]، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾[٥]، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾[٦].

سؤال: إن كانت كلمة "العالَم" المفرَدَة تطلق علىٰ كل ما سوىٰ الله تعالىٰ، فما الوجه لورود الكلمة بصيغة الجمع "العالمين"؟ وما الفائدة من وراء ذلك؟

الجواب: لَمَّا كان "ما سوىٰ الله تعالىٰ" يدخل فيه أجناس كثيرة، وعوالم عديدة مختلفة؛ كالعالم العلويّ، والعالم السفلي، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وغيرها من العوالم؛ فللتّعميم وردت بصيغة الجمع صيغة "العالمين".

هذا، ولما أضيفت "رَبّ" إلىٰ "العالمين"، والحال أن "الربوبية" دليلٌ لـ "الحمْد" عُلِمَ بذلك أنّ العالم أجمع يقوم بـ "الحمد لله" تعالىٰ، كما ورد ذلك في الآية (٤٤) من سورة الإسراء.

---

(١) الآية (١٨٠) من سورة الصافات.

(٢) الآية (٤٩) من سورة النجم.

(٣) الآية (٣) من سورة قريش.

(٤) الآية (٩١) من سورة النمل.

(٥) الآية (١) من سورة الفلق.

(٦) الآية (١) من سورة الناس.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾: دليل عقلي آخر لـدعوىٰ "الحمد لله"، وذلك بذكر صفتين مِن صفات الله تعالىٰ، ولَمْ يَذْكُرْهما علىٰ سبيل العطف إشارة إلىٰ أنه بنفسه دليل مستقل، وصفات مستقلة.

هذا، وقد مضىٰ شيء من تفسير "الرحمن الرحيم" في البسملة، وسيأتي تفسير "الرحمن" [بشيء من التفصيل] في سورة "الرحمن" المباركة كذلك[1].

سؤال: إنّ صفتي "الرحمن الرحيم" قد ذُكِرَتا في مطلع السورة في البسملة منها، فلِم ذُكِرَت وللمرة الثانية هنا؟ وما الفائدة من هذا التكرار؟

الجواب: لتكرار "الرحمن الرحيم" ولذكرها وللمرة الثانية فوائد كثيرة:

١- أنها قد ذكرت في البسملة كدليل علىٰ الاستعانة، وذكرت هنا كدليل علىٰ "الحمد لله".

٢- أن تكرارها لدفع توَهُّمٍ يتعلق بإعطاء النعم؛ وبيان ذلك: عندما ذكر أنه تعالىٰ "رب العالمين" -أي: أنه تعالىٰ هو الخالق لِلنِّعَم كلها، ومالك لها- فيُتَوَهَّم هل هو يعطي النعم أم لا يعطيها؟ وهل يعطيها للجميع أم للبعض؟ فبذكر "الرحمن الرحيم" وللمرة الثانية قد اندفع هذا الوهم، وأجيب عليه.

٣- أن ذكر لفظ "الله" في البسملة يوجبُ الوَجَل والهيبة، فلإزالة هذا الوَجَل جاءت البشارة برحمة الله، [وذكرت كلمتا "الرحمن الرحيم"]؛ لكنْ ذكر "رب العالمين"

(١) نهاية ص١٢/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

يخلق هنا الآمال للنِّعَم كلها، فلأجل تأييد الآمال هذه جاءت كلمتا "الرحمن الرحيم"، وطريقة الاستدلال هي أنه مادام المعطي للرحمات كلها وللنعم -عامة كانت، أو خاصة- هو الله تعالىٰ، وهو لا يطالب بعوض؛ فيجب لهذه الذات الحمد، وينبغي لله وحده الشكر، وأنه لا يشاركه تعالىٰ في إعطائه للنعم أحد؛ فيعلم أن الحمد يخصه كذلك.

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ صفةٌ أخرىٰ لله تعالىٰ، وذُكِرَت كدليلٍ عقليٍّ ثالثٍ علىٰ [إثبات دعوىٰ] أنّ "الحمد لله"، وطريقة الاستدلال فيه: هي أنه لما كان المالك للجزاء والعقوبات كلها هو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولا اختيار في ذلك لأحد غيره، فصفات الألوهية تخصّه تعالىٰ.

هذا، ومناسبة هذه الصفة بما قبلها من صفات هي: أنه قد عُلِم أنّ نعم الله تعالىٰ ورحماته عامة؛ فلم يمنع منها أحداً؛ فتُوُهِّم بأنّ في استعمال النِّعَم للعباد الحرية التامة أم أنه ولا بد من تمييز بين من يستعملها في الخير ومن يستعملها في غير ذلك؟! فذكرت ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ دفعاً لذاك الوهم، ومُبَيِّنًا أنه لابد للعبد عند استعماله النعم مِن إيمان بيوم الدين، وتذكر المحاسبة والمجازاة، حفظاً للنِّعَم من الضياع، [وحفظاً للإنسان من اللامبالاة واللامسئولية].

﴿ مَٰلِكِ ﴾: [اسم فاعل] مأخوذ مِن "مِلْكٍ" بكسر الميم، ومعنىٰ الـ"مالك" كصفة من صفات الله تعالىٰ حسب ما كتبه البيضاوي: "هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء"، ويقول الفراء والبغوي: إنّ المالك: "هو القادر علىٰ اختراع الأعيان مِن العدم إلىٰ

الوجود"؛ فالـ "مالك" بهذا المعنىٰ يخص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[١]، ولذلك قال القرطبي: إن "مالك" علىٰ إطلاقها لا تستعمل لأحد غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وقد تستعمل بمعناها المجازي للمخلوق الذي يملك التصرف في المملوك كذلك؛ لكن يملكه بمشيئة الله تعالىٰ، وهذا وجه [من وجوه] الْمِلْكِيّة.

هذا، والآيات [القرآنية] في إثبات الملكية -بمعناها الحقيقي- لله تعالىٰ كثيرة جدًّا، وكذلك نفي تلك الملكية عن غير الله تعالىٰ، قد ذكرته في باب ردّ الشرك في التصرف مِن كتاب "تنشيط الأذهان".

﴿ يَوْمِ ﴾: كلمة الـ "يوم" أكثرُ ما وردت في القرآن الكريم بمعنىٰ يوم القيامة؛ فهي قد ترد مُقَيَّدَة بكلمات مثل: الدين[٢]، والحساب[٣]، والآخِر[٤]، والقيامة[٥]، وغيرها، وقد ترد مطلقة[٦] لكن وبدلالة القرينة تُعْرَف بأنّ المراد منها يوم القيامة.

---

(١) نهاية ص١٣/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾. الآية (١٧-١٨) من سورة الانفطار.

(٣) كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾. الآية (٢٧) من سورة غافر.

(٤) كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾. الآية (٨) من سورة البقرة.

(٥) كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾. الآية (٢١٢) من سورة البقرة.

(٦) كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾. الآية (١٦) من سورة غافر.

ويوم القيامة من النفخة الثانية –والتي يُبْعَث بها الناسُ من القبور–، إلىٰ دخول أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ، أو إلىٰ ما لا نهاية له.

هذا، وقد ترد كلمة الـ"يوم" [مقيدة بكلمات تدل علىٰ أنها] بمعنىٰ يوم [من أيام] الدنيا، كـ: "يوم سبتهم"(١)، و"يوم الفرقان"(٢)، و"يوم حنين"(٣)، وغير ذلك(٤).

والـ"يوم" شرعـًا هو: [المدَّة الزمنية] بين طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس(٥)، وقد ترد الـ"يوم" بمعنىٰ مطلق الزمن، والذي لا يعرف مقداره الصحيح أحدٌ غير الله تعالىٰ؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(٦). وقد ترد بمعنىٰ النِّعَم والنِّقَم؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾(٧). وفي قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾(٨).

﴿ٱلدِّينِ﴾: قد وَرَدَتْ كلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ في القرآن الكريم لِمَعَانٍ كثيرة:

(١) المعتقد القلبي.

---

(١) الآية (١٦٣) من سورة الأعراف.

(٢) الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٣) الآية (٢٥) من سورة التوبة.

(٤) كيوم الزينة، ويوم الحج الأكبر، ونحو ذلك.

(٥) تعاريف أخري لـ "اليوم": ؟؟؟

(٦) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

(٧) سورة إبراهيم: الآية (٥).

(٨) سورة الجاثية: الآية (١٤).

(٢) الشريعة.

(٣) الغلبة.

(٤) القانون.

(٥) الطاعة.

(٦) الحدّ الشَّرعيّ.

(٧) العبادة.

(٨) الدعاء.

(٩) المحاسبة والجزاء.

وقد وردت هنا [في الفاتحة] بالمعنىٰ الأخير؛ فـ"يوم الدين" يعني "يوم المحاسبة والجزاء"، هذا، وقد وردت "يوم الدين" بهذا المعنىٰ في القرآن (١٣) مرة[1].

سؤال: إنَّ الله تعالىٰ هو المالك للدنيا وللآخرة كليهما، فما الحكمة من تخصيص ملكيته تعالىٰ بيوم الدين في الآية؟

الجواب: [لتخصيص ملكية الله تعالىٰ بيوم الدين في الآية الكريمة وجوه:]

---

(١) بعض النصوص القرآنية الدالة علىٰ الموضوع:

أ- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾، الآية (٣٥) من سورة الحجر.

ب- ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾، الآيتان رقم (٢٠) و(٢١) من سورة الصافات.

ت- ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ الآيات (١٤) إلىٰ (١٩) من سورة الانفطار.

الوجه الأول: أن الناس في الدنيا لهم ملكية ولو باعتبار الظاهر، لكن الآخرة لا ملكية لأحد فيها غير الله تعالىٰ، لا حقيقة ولا مجازا، كما بينتها الآية (١٩) من سورة الانفطار، وهذا التخصيص يناسب دعوىٰ السورة، وتخصيص الحمد لله تعالىٰ تماماً.

الوجه الثاني: أن في تخصيص ملكيته تعالىٰ بيوم الدين ردٌّ علىٰ الاعتقاد بالشفاعة الشِّركية، أي أنّ المشركين يعتقدون بأن لهم يوم القيامة شفعاء ستنجيهم من عذاب الله وجزائه حتماً؛ ففي رد [هذا المعتقد عليهم][1] قيل لهم: إن الجزاء يوم القيامة يملكه الله تعالىٰ، ولا اختيار قط لأحد غير الله تعالىٰ فيها.

سؤال: لِمَ لَم يقل "مالك الدين" [وقال: "مالك يوم الدين"]؟

الجواب: [لهذا القول وجوه؛ منها:]

الوجه الأول: أن كلمة "الدين" لوحدها وبعيداً عن [إضافة كلمة] "يوم" لا تدل وبوضوح علىٰ معنىٰ الجزاء.

الوجه الثاني: أن "يوم الدين" أعمّ وأشمل من "الدين"، [وبعبارة أخرىٰ] أن ملكية الله تعالىٰ هذه لا تنحصر بالدين والجزاء فقط بل تشمل كل ما في ذاك اليوم من أمور وأحوال، ويوم الجزاء فيه أمور مختلفة وكثيرة [فالله تعالىٰ هو الذي يملكها كلها ملكية لا يشاركه في شيء منها أحد].

---

(١) نهاية ص١٤/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

سؤال: لِمَ خُصِّصَتِ هذه الصّفات الخمسة[١] بالذكر في السورة؟

الجواب: قال ابن القيم -رحمة الله عليه-: "إن صفات الله هذه هي الخلاصة والمصدر للصفات كلها، فصفات الألوهية الثبوتية والسلبية كلها داخلة في لفظ الله، وصفات الفعل والقدرة تتعلق بصفة الرب، وصفات الإحسان والجود والرأفة والرحمة ترجع إلىٰ الرحمن الرحيم، وصفات العدل والحكم المتعلق بالعزة والذلة ترجع إلىٰ صفة المالكية؛ كما أن الحمد أيضا يتعلق بالربوبية والرحمة والجزاء". وهذا ما أشرت إليه في مناسبة الجُمَلِ في [السورة].

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾: لما ذُكِرَتِ الدّعْوَىٰ وبأدلّتها، حان الوقت لِذِكْرِ النّتيجة لها، والتفريعات [المبنية عليها]؛ فـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تفريعٌ للتوحيد في العبادة علىٰ توحيد الربوبية، وعلىٰ توحيد الأسماء والصفات.

سؤال: إنّ الصيغ الموجودة قبل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ جاءت علىٰ صيغة الغائب، أما هذه فصيغة المخاطب؛ فما وجهه؟!

الجواب: إن هذه الطريقة يقال لها في البلاغة "الالتفات في الكلام"، ولها أنواع عديدة، وحِكَمٌ كثيرة، تُبْحَثُ في علم البلاغة مُفَصّلاً.

---

(١) المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعني بقوله: "الصفات الخمسة..": الأسماء الخمسة المذكورة في السورة والصفات الواردة فيها؛ كما صرح بنفسه في بدايات تفسيره للسورة في المخمس الثالث، فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التصريح بذكر خمسة أسماء لله تعالىٰ: (١) الله، (٢) الرب، (٣) الرحمن، (٤) الرحيم، (٥) المالك". وقال في المخمس الرابع: "الإشارة إلىٰ خمس صفات لله تعالىٰ: (١) المحمود، (٢) المعبود، (٣) المستعان، (٤) الهادي، (٥) المنعم".

أما الالتفات هنا فالتفات من الغائب إلىٰ الخطاب، ووجه ذلك أن التعريف يكون بصيغة الغائب عادة رغم حضور الطّرف؛ فما كان بصيغة الغائب من الآيات قبلُ كان تعريفاً بالله تعالىٰ، وبأسمائه، وصفاته؛ وأما الخطاب في "إياك نعبد" وما بعدها فلأن فيها إقرار للعبد، وعَرَضٌ منه لحاجته إلىٰ الله، وهذه [الأمور] ينبغي أن تكون بصيغة الخطاب.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾: في هذه الجملة توحيد في العبادة، ومعرفةٌ لحق اللهِ الأساسِ؛ كما ورد في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنّ حق الله علىٰ عباده أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**»[(١)].

"إياك": في هذه [الجملة] تخصيصٌ، وبصُوَرٍ ثلاث:

(١) بذكر مادة ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الدّالة علىٰ التخصيص.

(٢) وبتقديم المفعول علىٰ الفعل المتعلق به[(٢)]، والحال أنّ تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والتخصيص.

(٣) وبانقطاع عطف الغير علىٰ ﴿ إِيَّاكَ ﴾؛ وذلك بتقديم مفعول إياك؛ لأنه لا يجوز في مثل هذه الحالة العطف عليه.

(٤) ولتقديم ﴿ إِيَّاكَ ﴾ فائدة أخرىٰ كذلك، وهي: أنّ العابد ينبغي أن يكون المعبودُ نُصْبَ عينيه قبل أن يقوم إلىٰ عبادته.

وهذا التخصيص وبصوره الثلاث لوجهين اثنين:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، ح (٢٨٥٦)، ومسلم في صحيحه، ح (٥٠) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) نهاية ص١٥/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

١- أنه لما كان التخصيص في أصل الدعوىٰ، فينبغي أن يكون فيما يتفرع منها التخصيص كذلك.

٢- أنّ في هذا ردًّا علىٰ الشرك [مِن جُذُورِه]؛ لأنّ العبادة علىٰ إطلاقها -الخالية عن التوحيد- قد كان المشركون قائلين بها علىٰ هذا الوجه؛ ولذلك روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال ما معناه "نعبدك ولا نعبد غيرك"، وفي رواية أخري: "لَكَ نُوَحِّدُ ولا نُطِيعُ غيرك".

﴿ نَعْبُدُ ﴾: صيغةُ جَمْعِ المتكلِّم، وفيها إشارة إلىٰ أن العبادة واجبة علىٰ جميع العباد، وبأدائها مِن قبل واحدٍ منهم لا تبرؤ ذِمَمُ الجميع. ووجه آخر ذكره البيضاوي وغيره: أنّ العابد يُدْخِلُ عبادَتَه في جَمْعِ العابدين رجاءَ أنْ تُقْبَلَ عبادَتُه مع عبادتهم.

[**معنىٰ العبادة**]: إنّ مادة "ع، ب، د" في اللغة تعني: كثرة الاستعمال، والتذلل؛ فالطريق الذي يُسْتَعْمَل كثيرا، ويصير مسطحًا، وقد وُطِئَ حتىٰ أصبح مذللا بأقدام الناس، يقال له: طريقٌ مُعَبَّدٌ، وكذلك الثَّوْبُ الذي كثر استعماله وصار عتيقًا مذللا، يقال له: ثوبٌ مُعَبَّدٌ؛ فعلم مِن هذا أن "العبادة" يكمن فيها معنىٰ التذلُّل بكماله.

هذا، وقد وردت في المعنىٰ الشرعي لـ "العبادة" تعريفات تختلف عباراتها كثيراً عن بعضها البعض؛ لكن التعريف الجامع لها هو: "الطاعة مع غاية الخضوع، والتذلل، علىٰ وَفْقِ ما كُلِّفَ به، مع اعتقاد ألوهية المعبود"؛ فعلىٰ هذا كل طاعة ينقصها الخضوع والتذلل لا تكون عبادة، كَطَاعة الرسول أو الأمير أو الإمام في غير المعصية [لله تعالىٰ]، لا تكون عبادة له [أي: للمطاع]، وكذلك الخضوع والتذلل الذي لا يصاحبه الطاعة، لا يكون عبادة؛

كما يفعله أصحاب الباطن والمتصوفة الذين نجد فيهم الخضوع والتذلل التام لله تعالىٰ لكنهم لا يطيعونه -سبحانه- فيها، وكذلك لا تكون عبادة تلك الطاعة التي لا توافق القرآن والسنة؛ كما لا تكون عبادة تلك الطاعة التي يصاحبها الخضوع لكن ينقصها الاعتقاد بألوهية المطاع.

هذا، واعلم أن العبادة هي طاعة تؤدىٰ بأي عضوٍ من أعضاء العبد، أو بالقوة البدنية، أو المالية[١]، ولذلك لها أنواع كثيرة وعديدة كـ: العبادات القلبية، والعبادات البدنية الظاهرة، والعبادات المالية.

أما العبادات القلبية المشهورة فأقسامها هي: المحبة، والرجاء، والخوف، والإخلاص، والتوكل، والإنابة، والتفكر، والتصديق، والنية.

والعبادات البدنية؛ فلكلٍّ مِن اللسان، والأذنين، والأنف، والعينين، واليدين، والقدمين [من الأعضاء]، و[كذلك لكلٍّ مِن] القوىٰ: الذّائقة، واللّامسة، والشّامة، [وغيرها] عباداتها الخاصة بها.

كما أن في كل منها: الواجبة، والمستحبة، والمباحة، والمكروهة، والمحرمة.

وكذلك العبادات المالية خمسة أقسام، وتجدون تفصيل ذلك في "بدائع التفسير" لابن القيم -رحمة الله عليه-[٢]. فالمؤمن عند قوله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ ينتبه إلىٰ هذه العبادات، وبأنواعها كلها.

---

(١) نهاية ص١٦/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) بدائع التفسير: ص ٢١٠ - ٢٢٣ ج ١. المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تنبيه: قد وردت الـ"عبادة" في اللغة، وفي استعمالاتها القرآنية بمعانٍ عديدة:

١ – العبادة: بمعنىٰ الطاعة، كما وردت في الآية (٦٠) من سورة يس[١].

٢ – العبادة: بمعنىٰ المِلْك، فعلىٰ هذا العبد بمعنىٰ المملوك، كما وردت في الآية (٧٥) من سورة النحل[٢].

٣– العبادة: بمعنىٰ التذلل؛ كما وردت في الآية (٢٢) من سورة الشعراء[٣]، وفي الآية (٤٧) من سورة المؤمنون[٤].

٤ – العبادة: بمعنىٰ الغضب والكراهية، كما وردت في الآية (٨١) من سورة الزخرف[٥] بناءً علىٰ تفسيرٍ للآية.

٥ – العبادة: بمعناها الشرعي [الذي ذكرناه آنفًا]؛ كما وردت في آيات كثيرة، والمراد من العبادة هنا، وفي آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو معناها [الشرعي] الأخير.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: هذه [الجملة] معطوفة علىٰ الجملة التي قبلها؛ لما فيهما من مناسبة، وهي أن العبادة لفظ عام، والاستعانة فرد خاص من ذاك العام. وقد جاءت كلمة

---

(١) قد كتب في المطبوع (الآية ٧٠) لكن ليس فيها ذكر العبادة؛ فعلمنا أن المراد الآية (٦٠) قوله تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٠﴾.

(٢) قوله تعالىٰ: ﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

(٣) نص الآية: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٢٢﴾.

(٤) نص الآية: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ۝٤٧﴾.

(٥) نص الآية: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۝٨١﴾.

"إياك" للمرة الثانية ولم يكتفىٰ بالأولىٰ منها، إشارة إلىٰ أن تخصيص الاستعانة بالله تعالىٰ أمر مستقل، ومُهِمٌّ لذاته. فلو لم تأت كلمة "إياك" وللمرة الثانية لَتُوُهِّمَ أنّ تخصيص العبادة والاستعانة لله تعالىٰ معـًا، ولا تخصيص له تعالىٰ في واحدة لوحدها، وهذا خطأ.

﴿نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: مأخوذة من الـ "عَوْنِ"، والعَوْنُ بمعنىٰ الإِمْدَادِ، أما الاستعانة فتعني طلب العون.

سؤال: النُّصرة بمعنىٰ الإمداد كذلك، فلِمَ لم يقل: "نستنصر"؟

الجواب: النُصرة أكثر ما تستعمل عند مواجهة العدو، أما العون فعامَّةٌ، تستعمل في ذلك، وفي غيره؛ كما أنَّ النُّصْرَة تُسْتَعْمَلُ فيما يتعلق بالأسباب، أي في طلب الوسائل الموصلة لِلْفَتْحِ والغلبة، أما العون فعامة سواء كان الطلب يتعلق بالأسباب والوسائل، أو يتعلق بالمقاصد؛ فالعون أعم من النصر، ولذلك أُتِيَ بها.

تنبيه: إن "التوفيق"، و"الدعاء"، و"النصرة"، و"التوكل"، و"الاستعانة" كلها مرادفة المعنىٰ في إثبات[1] الاحتياج؛ لكن [رغم هذا] فإن "الاستعانة" تشمل ذلك كله؛ ولأجل هذا التعميم لم يذكر المفعول لـ "نستعين"، حتىٰ يكون معناها: "نستعين في جميع الحوائج والأحوال"، أو أن مفعولها مُقَدَّرٌ، وبقرينة ما قبلها يكون معناها: "نستعين في أداء العبادات [بكل أنواعها]"، ولذلك : إن في "إياك نعبد" ردٌّ علىٰ الجبرية الذين ينكرون نسبة الأفعال إلىٰ العبد بتاتـًا، وفي "إياك نستعين" ردٌّ علىٰ القدرية القائلين بالاختيار التام للعبد في أفعاله وبغير حاجة إلىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) نهاية ص١٧/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

هذا، وقد ذكر ابن كثير عند هاتين الجملتين: "إنّ الدِّين كلّ الدّين يرجع إلىٰ هاتين الكلمتين، فالفاتحة سِرُّ القرآن، وسِرُّ الفاتحة هاتان الكلمتان؛ لأن في "إياك نعبد" البراءة عن الشرك، وفي "إياك نستعين" البراءة عن الحول والقدرة، والتسليم لله تعالىٰ".

سؤال (أ): ما دامت الاستعانة عبادة، فقد شملتها "إياك نعبد"؛ فلِم ذكرها ثانية؟

سؤال (ب): ولما كانت العبادة موقوفة علىٰ الاستعانة، فلِم ذكرها قبل الاستعانة؟

الجواب: للجواب علىٰ هذا وجوه عدة:

١- أنّ هذا تخصيصٌ بعد تعميمٍ، وذلك لأهمية مسألة الاستعانة، والتي كان أكثر شرك المشركين فيها؛ كما أنّ أكثر الجهلة في أيامنا هذه عند المصيبة والحاجة ينادون [غير الله ويستغيثون بهم؛ فيقولون]: يا شيخُ فلان! يا مُرْشِدَنا! يا غوثنا! أَدْرِكْنَا! المدَدَ المدَدَ! أدرِك حالنا بالخير!

وبعض الجهلة منهم يختمون [كلامهم] بمثل: يا شيخ عبد القادر شيئًا لله! أمدنا أمدنا واكشف عنّا كربتنا يا شيخ عبد القادر! والحال أنّ كل هذا صريح الشرك.

٢- أنّ الاستعانة ورفع الحوائج هو المقصِد للعباد، والعبادة وسيلة لذلك المقصد؛ والوسيلة مقدَّمة علىٰ المقصِد، وهذا دليل علىٰ أنّ ذكر الوسيلة في الدعاء مِن آداب الدعاء، لكنّها الوسيلة الشرعية منها لا الشركية ولا البدعية؛ فينبغي أن تُقَدَّم العبادةُ وأعمالُ الخير والإيمانُ كوسيلةٍ [في الدعاء]؛ وما أكثر مثلُ هذه التوسُّلات في الأدعية القرآنية والحديثية.

٣- أنّه لما نسب الفعل إلىٰ العبد في "نعبد"، ربما يُتَوَهَّمُ أنّ العبد وبقدرته المستقلة قد قام به، وكما أنّه قد يتولد منه الكبر؛ فيتوغل فيه، فلدفع مثل هذه الأوهام وردت جملة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1].

٤-أنّ كمال العبودية في أمرين اثنين: **أولهما**: الكَدَحُ [والعمل الدؤوب]. **وثانيهما**: الدّعاء [وطلب الحاجات منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ]؛ وذلك لأن الفوز رهين الأمرين معـًا، فلا فوز في الكدح [والعمل الدؤوب] لوحده، ككدح المنحرفين عن الدّين، ولا فوز كذلك في الدعاء لوحده كما يفعله المشيخة المزوِّرين والمتسولِّين؛ فذَكَرَ الأمرين معـًا في آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فقد ذَكَر الكَدَح في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وذَكَرَ الدعاء في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ كما ذَكَرَ ذلك في الآية (١٢٣) من سورة هود[2]، وفي الآية (٩) من سورة المزمل[3].

٥- أنّ مِن الآداب الشرعية أنْ تَقْرِنَ العبادةَ بالدعاء؛ كما نرىٰ ذلك في التشهد الأخير مِن الصلاة، والدعاء فيها قبل السلام من السنة، وكذلك الدعاء بعد الصلوات المفروضة كما نُقِلَ، وعلىٰ هيئةٍ غير جماعية، والدعاء عند الإفطار من الصوم، وكذلك الدعاء في الحج

---

(١) نهاية ص١٨/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) نص الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾

(٣) نص الآية: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾.

و[المناسك كلها]. كل هذا يشير إلىٰ أنه لا يجوز للعابد أن يتكبر في عبادته، أو أن يغتر بها؛ بل عليه أن يتواضع في العبادة [ويرفع حاجته إلىٰ الله تعالىٰ].

الفائدة الأولىٰ: أن الأمر بالاستعانة قد ورد (٣) مرات في كلٍّ مِن: الآية (٤٥) من سورة البقرة، والآية (١٥٣) منها، وكذلك الآية (١٢٨) من سورة الأعراف.

كما أن تخصيص الاستعانة في صفة الله تعالىٰ وبصيغة "المستعان" قد ورد مرتين: في الآية (١٨) من سورة يوسف، وفي الآية (١١٢) من سورة الأنبياء.

الفائدة الثانية: أن تخصيص الاستعانة بالله [في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾] دليل صريح علىٰ رد الشرك في الدعاء [والطلب]، وهذا يبطل قول بعضِ أصحابِ التفاسير -المعاصرين- القائلين بجواز التوسل بالذوات ما دام المتوسِّلُ لا يعتقد له قدرةً مُسْتَقِلَّة عن الله تعالىٰ! وهذا باطل ووَهْمٌ منهم؛ لأن التّوسّل هذا يكون بدعاء الأحياء لا بذواتهم.

الفائدة الثالثة: علىٰ صورة سؤال: النصوص القرآنية، مثل: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾[١]، ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢]، وكذلك: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾[٣]. هذه الآيات تدل علىٰ جواز طلب العون والنصرة من غير الله تعالىٰ؛ فكيف يُدَّعَىٰ تخصيصه لله تعالىٰ في قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؟

---

(١) في الآية (٩٥) من سورة الكهف.

(٢) في الآية (٥٢) من سورة آل عمران، وكذلك في الآية (١٤) من سورة الصف.

(٣) في الآية (٧٢) من سورة الأنفال.

الجواب: هناك فرقٌ بين فعل الله تعالىٰ وفعل المخلوق؛ كالفرق بين صفات الله تعالىٰ وصفات المخلوقين، فعلىٰ هذا نصرةُ الخلق وعونُهم يتعلق باستعمال الأسباب الظاهرة وما هو داخل تحت تصرفهم، وهم في ذلك محتاجون إلىٰ الله تعالىٰ؛ وهم علىٰ بذلِ تِلْكَ الأسباب يُثَابُون ويُجَازون، أما عون الله تعالىٰ المخصوص به ونصرته فأشمل مِن ذلك وأكبر وأوسع منها، ولا حاجة له تعالىٰ بهذه الأسباب، وهو خالق الأسباب كلها؛ فقوله "إياك نستعين" تعني أنّ قضاءَ الحاجاتِ، وخَلْقَ الأسبابِ، وإعطاءَ التوفيقِ، ورَفْعَ المصائبِ، وشفاءَ الأمراضِ، وكذلك تأمين الصحة والأمن وغيرها من النِّعَم، هذه كلها أمور تخص الله تعالىٰ، أما معنىٰ تلك النصوص وكلمة النصرة أو العون المذكور فيها،[1] فلا خلاف بينها وبين ما ذكرت في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ولا يثبت منها الشرك في الاستعانة البتة؛ لأن معناها أن الأسباب التي خلقها الله تعالىٰ يجب أن يُسْتَفادَ منها، ويجب أن يُسَاعَدَ بها مَن يحتاجها، كما يجب مشاركتهم في مصيبتهم وحمل شيء من أعبائهم.

هذا، ولننبه هنا إلىٰ أن: الاستعانة [في القرآن الكريم] قد ترد مطلقة كما هي في هذه الآية [من سورة الفاتحة]، وقد ترد مُتَعَدِّيَةً بحرف الباء، كما هي في الآية (١٢٨) من سورة الأعراف[2]، وكذلك في حديث «**وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[3].

---

(١) نهاية ص١٩/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) نص الآية: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾.

(٣) رواه الترمذي، ح (٢٥١٦)، وقال: (حسن صحيح).

والفرق بينهما: أنها عند تَعَدِّيها بحرف الباء تشير أن الاستعانة بالله تكون مصاحبة للتّوسل به تعالىٰ -أي بأسمائه وصفاته- كما ذكر هذا الأدب في الآية (١٨٠) من سورة الأعراف، أما ذكر الاستعانة بغير حرف الباء فتعني أن طلب العون من الله تعالىٰ مطلق عام، قد يكون مصاحبًا للتوسل أو غير مصاحب له، وقد يكون التوسل بأسماء الله تعالىٰ وصفاته، أو يكون بغير ذلك من التوسل المشروع، وهو التوسل بالأعمال الصالحة.

﴿ ٱهۡدِنَا[ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ]﴿٦﴾﴾: إن لربط الآية بما قبلها وجوه عدة:

١-أنّه لما ذُكِرَتِ العبوديةُ والاحتياجُ في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، فهذه الجملة فيها إظهار للعبودية والاحتياج.

٢- أنه لما قيل: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾؛ كأنّ من قبل الله تعالىٰ قيل لهم: "كيف أعينكم؟"، فجاء الجواب بقول: ﴿ ٱهۡدِنَا﴾.

٣- أنّه لما ذكر التوحيد وبأنواعه كلّه، وهو المصداق للصراط المستقيم، فجاء الآن ذكر الاستقامة علىٰ التوحيد، والدعاء للمداومة عليه، وهذا لأنّه لو لم توجد المداومة علىٰ التوحيد والثبات عليه فلا جدوىٰ منه البتة.

﴿اهْدِ﴾: مأخوذة من الهداية، والهداية في اللغة تعني الدلالة علىٰ الخير دنيويًا كان أم دينيًا. والذي يقول إن الهداية تعني مطلق الدلالة؛ فقوله هذا خطأ بين. نعم، قد تستعمل الهداية في الشر؛ لكن هذا بطريق التّهكُّم والاستخفاف، كما وردت في الآية (٤) من سورة الحج، وفي الآية (٢٣) من سورة الصافات.

هذا، وقد استعملت الهداية في القرآن الكريم علىٰ (١٩) معنىٰ، وقد ذَكَرْتُها مفصَّلاً في "لطائف القرآن"، أما بمعناها المشهور -وهو الإرشاد إلىٰ الحق- فقد استعملت علىٰ صور ثلاث:

الصورة الأولىٰ: تعديتها إلىٰ مفعولٍ ثاني بـ"إلىٰ"، كما في الآية (١٢١) من سورة النحل،[1] وفي الآية (٥٢) من سورة الشوري، وفي الآية (٨٧) من سورة الأنعام، والآية (١٦١) منها، وفي الآية (١٩) من سورة النازعات، وفي هذه الصورة تعني: إرشاد الغير إلىٰ طريق الحقّ، سواء ذاك الغير أخذ الطريق أم لم يأخذه، وسواء وصل بها إلىٰ المقصود أم لم يصل بها.

الصورة الثانية: تَعْدِيَتُها بحرف اللام، كما في الآية (٢١٣) من سورة البقرة، والآية (٩) من سورة الإسراء، والآية (١٧) من سورة الحجرات، وهذه الصورة تعني: إرشاد الغير إلىٰ طريق الحق، وأخذه إلىٰ الطريق، سواء وصل بها إلىٰ المقصود أم لم يصل بها.

الصورة الثالثة: تَعْدِيَتُها بنفسها، كما في الآية (١٧٥) من سورة النساء، وفي الآية (٢٢) من سورة القصص، وفي الآية (٢) من سورة الفتح، وفي الآية (١١٨) من سورة الصافات، وفي هذه الآية من سورة الفاتحة، وهذه الصورة تعني: إرشاد الغير إلىٰ طريق الحق، وأخذه إلىٰ الطريق، ثم إيصاله إلىٰ المقصود.

---

(١) نهاية ص٢٠ / ١ من الأصل بلغة البشتو.

هذا، والهداية بهذه الصورة تخص الله تعالىٰ، وبالصورتين الأخريين يجوز نسبتها للكتاب والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك، ولما كانت الهداية في هذه الآية بمعناها الأخير؛ فلأجل ذلك: كان هذا الدعاء خاصًّا لله تعالىٰ، والهداية هذه منتفية عن غير الله سبحانه كما في الآية (١٤٨) من سورة الأعراف، والآية (٣٥) من سورة يونس، والآية (٥٦) من سورة القصص.

واعلم أن الهداية من الله تعالىٰ علىٰ سبع مراتب، وقد أطلقت علىٰ كل مرتبة منها هداية:

١- الهداية الفطرية: وتعني أن الله تعالىٰ خلق الإنسان علىٰ التوحيد؛ كما في الآية (٣٥) من سورة الروم، وهي المراد في الآية (٥٠) من سورة طه كذلك.

٢- [الهداية الحسية:] خَلْقُهُ تعالىٰ للحواس الظاهرة، وللقوىٰ الباطنة؛ لمعرفة الحقائق؛ كما في الآية (٣) من سورة الأعلىٰ.

٣- الهداية العقلية: إعطاؤه تعالىٰ للقوة العقلية؛ كما في الآية (١٠٠) من سورة الأعراف، وفي الآية (١٢٨) من سورة طه.

٤- [الهداية الآفاقية:] خلقه تعالىٰ للأدلة العقلية الآفاقية الدالة علىٰ معرفة الحق؛ كما في الآية (١٠)[1] من سورة البلد، وفي الآية (١٢) من سورة الليل.

---

(١) في أصل الكتاب الآية (١٤)، لكن الصواب أنها الآية (١٠) من السورة قوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

٥- [هداية العلم:] إنزال الكتب، وإرسال الرسل، وتنصيب الدعاة إلىٰ الحق، كما في الآية (٧) من سورة الرعد، وفي الآية (٢٤) من سورة الم السجدة.

٦- [هداية التوفيق والإلهام:] التوفيق والاستقامة علىٰ الحق، والمداومة علىٰ الطريق، كما في الآية (٦٩) من سورة العنكبوت، وفي الآية (٢) من سورة الفتح.

٧- [هداية الآخرة:] هدايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد بادخاله الجنة، كما في الآية (٥) من سورة محمد، وفي الآية (٤٣) من سورة الأعراف.

فلأجل ذلك [كله نقول بأن] طلب الهداية ومسألتها في هذه الآية اختُصَّت بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[1].

سؤال: لما كان العبد يحمد الله تعالىٰ، ويقر بالعبودية، عُلِم مِن ذلك أنه قد حصلت له الهداية؛ فطلبه الهداية بعد ذلك تحصيل للحاصل؟ وبلا فائدة؟!

الجواب: قد علمنا جواب السؤال مما مضىٰ من التفصيل علىٰ صورتين:

(١) أنّ ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ هنا بمعنىٰ: التوفيق، والثبات، والمداومة، والاستمرار؛ كما كتب ذلك ابن جرير، وابن كثير، والقرطبي، وغيرهم؛ فالمعنىٰ أن الانسان وبعد حصوله الهداية بحاجة ماسة إلىٰ المداومة عليها، والثبات فيها.

(٢) أن الهداية -كما بينا قبلُ- لها مراتب؛ والعبد وإن كان قد حصل علىٰ مرتبة من الهداية؛ فإنه بحاجة إلىٰ المرتبة الثانية، وصاحب الثانية بحاجة إلىٰ المرتبة الثالثة، وهلم جرا.

---

(١) نهاية ص٢١/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: في أصلها اللغوي بمعنىٰ العبور، وفي العرف: الطريق الذي يسلكه الناس للوصول إلىٰ المقصد؛ كما في الآية (٨٦) من سورة الأعراف، ولذلك قد قال للطريق الذي سيعبره العصاة "صراط الحجيم"؛ فيصلون به إلىٰ جهنم؛ كما في الآية (٢٣) من سورة الصافات.

أما الـ"صراط" في الاصطلاح القرآني فيقال لذاك: الطريق المعنوي الذي يسلكه الناس بالعمل به، والموصل إلىٰ الحق، والمستقيم؛ كما أنه مقيد بالشرع وضوابطه.

هذا، وقد وُصِفَ بالاستقامة في القرآن الكريم (٣٣) مرة[١]، كما وصف بالسّوِي مرتين[٢]، وهذه صفة مؤكِّدة لها.

هذا، ولما كان طريق الشرع مستقيماً، ومحدوداً بالحدود الشرعية، وباعتبارات "الكم" مقدارا، و"الكيف" طريقة، و"الأين" زمانا ومكانا؛ فذُكرت هنا "الصراط" ولم تذكر "الطريق"، أو "السبيل"؛ لأن هذه المعاني لا تكمن فيهما.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: بمعنىٰ السَّوِي، والطريق السَّوِي المستقيم الذي لا عوج فيه، والموصل إلىٰ المقصد؛ فهو طريق وسط لا إفراط فيه ولا تفريط.

---

(١) ومنها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾، الآية (١٤٢)، وقوله تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾، الآية (٢١٣)، من سورة البقرة. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، الآية (٥١) من سورة آل عمران.

(٢) قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾، الآية (٤٣) من سورة مريم، وقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾، الآية (٢٢) من سورة الملك.

و"المستقيم" في أصلها صفة للطريق؛ لكن قد تطلق صفة لمن يسلك هذا الطريق، وهو ذاك الشخص الذي يمتثل أَمْرَ اللهِ تعالىٰ ﴿ فَٱسْتَقِمْ ﴾ بالاستقامة؛ كما ورد في الآية (١١٢) من سورة هود، وفي الآية (١٥) من سورة الشورىٰ، وفي الآية (٦) من سورة حم السجدة. وتفصيل ما يتعلق بالاستقامةِ قد ذَكَرْتُهُ في كتابي "لطائف القرآن".

هذا، وقد ورد تفسير "الصراط المستقيم"[١] في القرآن الكريم علىٰ أربع صُوَرٍ:

١- [تفسيرها بـ] "توحيد الربوبية والألوهية"، كما في الآية (٥١) من سورة آل عمران، وفي الآية (٣٦) من سورة مريم، وفي الآية (٦٤) من سورة زخرف، وفي الآية (٦١) من سورة يس.

٢- [تفسيرها بـ] "كتاب الله"، كما في الآية (١٢٦) من سورة الأنعام، والآية (١٥٣) منها.

٣- [تفسيرها بـ] "سبيل الرسل"، كما في الآية (٤) من سورة يس، وفي الآية (٤٣) من سورة الزخرف، وفي الآية (١١٨) من سورة الصافات، وفي الآية (٢) من سورة الفتح.

٤- [تفسيرها بـ] "الاتباع للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ"، كما في الآية (٦١) من سورة الزخرف.

---

(١) نهاية ص ٢٢/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

هذا، وقد فسر المفسرون ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ بتعابير مختلفة، أرىٰ أنها ترجع إلىٰ تلك التفسيرات الأربعة، وتعبيراتهم هي: كتاب الله، الإسلام، الصحابة والتابعون، طريق الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والحق، هذه الأقوال ذكرها ابن كثير، وابن جرير، والبغوي في معالم التنزيل، وابن أبي حاتم.

فوائد: الفائدة الأولىٰ: قد ذُكِر ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ مُفْرَدَة، ومُعَرَّفَة؛ لأنّ طريق الحق وسبيل الأنبياء كلهم واحد، وبديهي أن هذا الطريق معلوم معين، بخلاف غيره من الطرق والسبل فإنها متعددة، ولذلك ذكرت تلك السبل بالجمع، كما في الآية (١٥٣) من سورة الأنعام.

سؤال: قد يطرح هنا بأن سبيل الله تعالىٰ قد ذكرت بالجمع، وبلفظ "سُبُل السلام" أيضـًا، كما في الآية (١٦) من سورة المائدة؟

الجواب: أنه لما كان لسبيل الله تعالىٰ أصول وفروع كثيرة كالإيمانيات، والأعمال، والأخلاق؛ والقرآن الكريم يهدي إلىٰ جميعها فلأجل ذلك وردت بالجمع، أما أن الإيمانيات وأديان الأنبياء أصولها واحدة فلأجل لذلك وردت بالمفرد.

الفائدة الثانية: لما كان ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾مقصداً مهمـًا للغاية، وكبيراً، وذا فائدة، وبكل الاعتبارات؛ فلأجل ذلك قد خصه الله تعالىٰ لندعوه ونطلب منه الهداية إليه.

الفائدة الثالثة: لما كان من أسباب استجابة الدعاء التَّوَسُّل بالوسائل الشرعية؛ فإن الله تعالىٰ قد علمنا وقبل كل شيء التَّوسّل الشَّرعي، وهو التوسُّل بأسماء الله تعالىٰ وصفاته، والتوسل بالعبادات.

هذا، والوسيلة الشرعية هي كل ما ثبت بدليل شرعي.

أما الوسيلة البدعية؛ فهي كلّ لفظ لم يثبت بدليل شرعي؛ مثل قولهم: "بحق"، "بجاه"، "بحرمة"، "بالمدلَّل عندك"، "ببركة"، أو غيرها؛ فإن ذكر الكلمات هذه لم تثبت ولا في حديث صحيحٍ واحد[١]؛ أما الأحاديث التي وردت في الـ"حق"، والـ"جاه"؛ فإن بعضها ضعيفةٌ، وبعضها موضوعةٌ.

هذا، والوسيلة الشركية هي كل ما فيها عبادةٌ؛ كالسجود، أو النذر، أو الطواف، وغيرها، للقبور، ولغير الله تعالىٰ، ويعتقد بها التقرب إلىٰ الله تعالىٰ، أو يطلب حاجته مِن صاحب القبر، أو يطلب منه أن يَدْعُوَ له؛ فهذا التوسل هو توسل المشركين، وسيأتي تفصيله في تفسير الآية (٣٥) من سورة المائدة[٢]، كما بينت جانبًا منه في "التبيان في تفسير أم القرآن".

الفائدة الرابعة: الصادون عن سبيل الله تعالىٰ وصراطه المستقيم طوائف خمسة؛ قد بينها القرآن الكريم:

الطائفة الأولىٰ: إبليس؛ كما في الآية (١٦) من سورة الاعراف[٣]، وفي الآية (٢٤) من سورة النمل[٤].

---

(١) نهاية ص٢٣/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) أي في تفسير الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾. ص / ج ؟

(٣) نص الآية: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾.

(٤) نص الآية: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

الثانية: جميع الضلال المدَّعين للعلم، والمشيخة الجهلة؛ كما في الآية (٣٤) من سورة التوبة[١].

الثالثة: جميع الضلال مِن أصحاب القرار، والملأِ؛ كما في الآية (٦٧) من سورة الأحزاب[٢].

الرابعة: جميع العوامِ مِن أهل الشرك والكفر؛ كما في الآية (٨٦) من سورة الأعراف[٣].

الخامسة: جميع الظالمين والمعتدين؛ كما في الآية (٤٥) من سورة الأعراف[٤].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾: هذا بدل الكل لـ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ٦﴾، وفيه إشارة إلىٰ أنه سيحصل في الطريق هاتان صفتان؛ **إحداهما**: الاستقامة. **والأخرىٰ**: الإنعام الخاص من الله تعالىٰ.

ويستفاد من ورود هذا البدل فوائد أخرىٰ كذلك:

---

(١) نص الآية: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلأَحبَارِ وَٱلرُّهبَانِ لَيَأكُلُونَ أَموَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

(٢) نص الآية: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾.

(٣) نص الآية: ﴿وَلَا تَقعُدُواْ بِكُلِّ صِرَطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبغُونَهَا عِوَجًا﴾.

(٤) نص الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾.

الفائدة الأولىٰ: أن الذاهب علىٰ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ رهينُ مصائبَ كثيرةٍ، فلأجل التسلية لذلك، قيل: إن المصائب هذه ستنال بها النعم، كما في المثل: "العطايا علىٰ متن البلايا".

الفائدة الثانية: أن السالك لـ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ أغلب ما يكون وحيداً؛ فقيل له: إن لك في هذا الطريق لَأَصْحَابٌ وهم المنعَم عليهم.

الفائدة الثالثة: أن في هذا بيانا لعلامة الصراط، ومن هنا كان الوصول إليه يسيرا.

الفائدة الرابعة: أن المنعَم عليهم هم الأنبياء، وأصحاب الأنبياء، كما سنبين ذلك وبوضوح بعد قليل -بإذن الله تعالىٰ-؛ فعُلِمَ مِن هذا أن الوصول إلىٰ الصراط المستقيم وسلوكه رهن اتباع الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، واتباع الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ.

﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾: ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ مصدرُها الإنعام، والإنعام مأخوذ من الـ"نعمة"، وهي: " كل نفع يصل الغير علىٰ وجه الإحسان، ولا يقصد المنعِم فيه أي نفعٍ لنفسه"؛ ولأجل ذلك كان الله تعالىٰ هو المنعم الحقيقي فقط؛ لأن أي إنسان وهو ينعم علىٰ الآخر[1] فلا بد مِن أنّه يفعل ذلك لفائدة تعود إليه هو، وإن كان له في ذلك الأجر والثواب؛ ولذلك وردت الإنعام منسوبة وبطريق الإضافة أو الإسناد إلىٰ الله تعالىٰ ستا وستين مرة في القرآن الكريم[2]،

---

(١) نهاية ص٢٤ / ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۝١١٤﴾، الآية (١١٤) من سورة النحل. وقوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، الآية (٣) من سورة فاطر.

نعم، قد تأتي منسوبة بطريق المجاز إلىٰ العباد كذلك، كما في الآية (٣٧) من سورة الأحزاب[١].

واعلم أن نعم الله تعالىٰ لا يستطيع أحد من الخلق أن يحصيها ويعدها، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ كما في الآية (٣٤) من سورة إبراهيم، وفي الآية (١٨) من سورة النحل؛ وذلك لأن هذه النعم كلها إما دنيوية وإما أخروية؛ والأخروية منها فأبدية في الجنة لا تُحْصَىٰ، وأما الدنيوية منها فعلىٰ نوعين: موهوبة، ومكتسبة؛ فالموهوبة: هي التي لا دور لأحد من الخلق في الحصول عليها؛ وهي علىٰ نوعين كذلك؛ [أحدهما: النعم] الروحية، وهي كإلقاء الروح في الجسم، وإعطاء العقل. [وثانيهما: النعم] الجسمية، وهي كخلق الهيكل [الإنساني]، وجعل الأعضاء المختلفة فيه. أما المكتسبة: فهي التي للاكتساب البشري دور في الحصول عليها، وهي كذلك علىٰ نوعين : جسمانية؛ كتجميل أعضاء الجسم [وتقويتها]، وروحية ؛ كتخلي النفس والروح من الرذائل، وتحليهما بالعلوم الشرعية. ففي هذه الآية ليس المراد النعم كلها؛ لأن الكفار المشركين لديهم النعم الدنيوية[٢] كذلك، رغم أن صراطهم غير [متصف بـ الـ] "مستقيم"، فظهر أن المراد [من النعم] هنا النعم الأخروية، وكذلك الدنيوية الروحية المكتسبة، ويطلق عليها "النعم الخاصة".

---

(١) نص الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾.

(٢) أي النعم الموهوبة الجسمية منها والروحية، والنعم المكتسبة الجسمية. المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرها في متن كتابه وبين قوسين.

وهذه النعم الدنيوية الخاصة قد ورد ذكرها بصُوَرٍ، ومعان مختلفة؛ كما نرىٰ ذلك في الآيات الآتية:

(١): الكتاب والحكمة، كما في الآية (٢٣١) من سورة البقرة[١].

(٢): الألفة بين القلوب، كما في الآية (١٠٣) من سورة آل عمران[٢].

(٣): طاعة الله تعالىٰ ورسوله، كما في الآية (٦٩) من سورة النساء[٣].

(٤): عصمة المؤمن من الأعداء، كما في الآية (١١) من سورة المائدة[٤].

(٥): النجاة من الأعداء، كما في الآية (٦) من سورة إبراهيم[٥].

(٦): النصرة الغيبية، كما في الآية (٩) من سورة الأحزاب[٦].

(٧): النجاة من عقاب دنيوي، كما في الآية (٣٥) من سورة القمر[٧].

---

(١) نص الآية: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

(٢) نص الآية: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

(٣) نص الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾.

(٤) نص الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.

(٥) نص الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

(٦) نص الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

(٧) نص الآية: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

ولو نتدبر هذه الآيات نرىٰ أن النعم هذه قد كانت [من الله تعالىٰ] علىٰ الأنبياء وعلىٰ أصحابهم وأتباعهم؛ كما أن أولئك الذين أنعم الله عليهم بالنعم الخاصة من الخلق في القرآن الكريم خمسة [أصناف؛ هم]:

الأول: عموم الأنبياء كلهم، كما في الآية (٥٨) من سورة مريم[١].

الثاني: بعض الأنبياء علىٰ وجه الخصوص؛ كسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما في الآية (١٩) من سورة النمل[٢]، وموسىٰ عليه السلام[٣] كما في الآية (١٧) من سورة القصص[٤]، ويونس عليه السلام، كما في الآية (٣٩) من سورة القلم[٥]، وعيسىٰ عليه السلام، كما في الآية (٥٩) من سورة الزخرف[٦]، وخاتم النبيين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في الآية (٢) من سورة القلم[٧].

الثالث: الصحابة الكرام كلهم، كما في الآية (١٠٣) من سورة آل عمران[٨].

الرابع: بعض الخواص من الصحابة، كما في الآية (٣٧) من سورة الأحزاب[٩].

---

(١) نص الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ...﴾.

(٢) نص الآية: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

(٣) نهاية ص٢٥/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٤) نص الآية: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾.

(٥) نص الآية: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ٣٩﴾.

(٦) نص الآية: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾.

(٧) نص الآية: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾.

(٨) نص الآية: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾.

(٩) نص الآية: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾.

الخامس: الشهداء في سبيل الله تعالىٰ، كما في الآية (١٧١) من سورة آل عمران[١].

هذا، وقد جُمِعَت هؤلاء كلهم في أصناف أربعة، كما في الآية (٦٩) من سورة النساء[٢]؛ فبهذا التفصيل ظهر أن المراد من "الذين أنعمت عليهم" هم الأنبياء عليهم السلام، وأصحابهم الأفاضل، وهذا دليل صريح علىٰ أن "الصراط المستقيم" إنما هو طريق الأنبياء والصحابة، والذي أشيرَ إليه في الحديث الصحيح بـ"ما أنا عليه وأصحابي"، وبناءً عليه فإن كل عقيدة، أو قول، أو فعل لم يثبت عن النبي [صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] أو الصحابة فلا يشمله "الصراط المستقيم"، ويكون بدعة، أو شركًا، أو كفرا، حفظنا الله وإياكم من الشرك، والكفر، والبدع، والمآثم.

فائدة: لم يقل: "المنعَم عليهم" بل قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، أي أنه قد نسب الإنعام صراحة إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن "عظمة الفاعل تدل علىٰ عظمة المفعول"؛ فقد أشير به إلىٰ النعم والتفضلات العظيمة الكثيرة.

فائدة أخرىٰ: وهي أنه قد علم مما سبق أن الإنعام علىٰ حقيقته لا يكون إلا من الله تعالىٰ، كما ذكر ذلك في الآية (٥٣) من سورة النحل[٣]، فذكر ههنا الإسناد الحقيقي له.

---

(١) نص الآية: ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

(٢) نص الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾.

(٣) نص الآية: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾: إبدال من ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لكن ابن القيم -رحمة الله عليه- قد رد هذا بثلاثة أوجه، كما ذكر ذلك مفصلاً في "بدائع التفسير"[1].

والراجح: أن هذا صفة لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهي صفة موضحة لها، أو مادحة، والهدف منها دفع الوهم، وَهْم ألا يدخل في ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الفسقة والكفار؛ كما أنها ليست بصفة مخصصة؛ لأنه قد ثبت سابقـًا مِن أن المراد مِن ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ جماعة خاصة من الناس.

سؤال: إن لفظة ﴿غَيْرِ﴾ باعتبار مصداقها مُبْهَمَةٌ كثيرة الإبهام، وهي نكرة لا تصير معرفة بالإضافة؛ أما ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فموصول ومعرفة؛ والنكرة لا تقع صفة للمعرفة؟!

الجواب الأول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موصولٌ، والموصولات فيها نوع إبهام، ولذلك تشم منها[2] رائحة النكرة؛ ولهذا يجوز أن تقع ﴿غَيْرِ﴾ صفة لها، هذا قول الزمخشري في الكشاف؛ لكنه قول ضعيف.

الجواب الثاني: أن لفظة ﴿غَيْرِ﴾ قد تصير معرفة بالإضافة، وذلك عندما تقع بين متضادين اثنين، ومعلوم بداهة أن ضد "المنعَم عليهم" هم "المغضوب عليهم" و"الضالون".

سؤال: لِمَ لَمْ تُذْكَرْ "لا" بدلاً من "غير"؛ كما تقول: "جاءني العالِمُ لا الجاهل"؟!

---

(١) بدائع التفسير: ص٢٤٠ / ١.

(٢) نهاية ص٢٦ / ١ من الأصل بلغة البشتو.

الجواب: إن الإتيان بـ"لا" يفيد النفي فقط، أما "غير" فلِما فيها من الدلالة علىٰ المغايرة، فإنها تفيد نفي الغضب، والمغايرة معـًا، المغايرة الكبيرة بين: الْمُنْعَم عليهم والمغضوب عليهم، وإنها لتوجب علىٰ "المنعَم عليهم" أن يحفظوا أنفسهم عن أسباب الغضب والضلال، وأن يبتعدوا كل البعد عن "المغضوب عليهم" و"الضالين"، و "لا" إتيانه لم يكن يفيد كل ذلك.

هذا، ولننبه علىٰ أن في ورود "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" فوائد كثيرة:

الأولىٰ: أن "أنعمت عليهم" قد كانت فيها بشارة لأهل "الصراط المستقيم" بالنعم الدنيوية والأخروية، أما "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" ففيها التخويف والانذار من أسباب الغضب والضلالة.

الثانية: أن في الأولىٰ ذِكْرٌ لصفةٍ ثبوتية، وأما الثانية ففيها ذكرٌ لصفةٍ سَلْبِيّة، وبجمعها معـًا يحصل الكمال.

سؤال: إن المنعَم عليهم قد ذُكِرَ بصيغة "الذين أنعمتَ عليهم"، فلِمَ لم يذكر "المغضوب عليهم" بصيغة "الذين غَضِبتَ عليهم"؟

الجواب (١): إن القرآن الكريم منهجه العام في إضافة أفعال الرحمة والإحسان إلىٰ الله تعالىٰ أنه يضيفها إليه بصيغة الفاعلية، لكن في نسبته لأفعال العقاب إلىٰ الله تعالىٰ أنه يذكرها بصيغة المبني لما لم يُسَمّ فاعله؛ كما في الآية (١٠) من سورة الجن[1]، وآيات كثيرة غيرها.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

الجواب (٢): إن في صيغة المجهول هذه، إشارة إلىٰ الغضب عامة؛ من الله تعالىٰ كان الغضب، أو من الملائكة، أو المؤمنين مِن الناس، أو حتىٰ غضب الأتباع ولعنهم لمتبوعيهم بالباطل يوم القيامة؛ أما الإنعام فبمعناها الحقيقي قد كانت مختصة بالله تعالىٰ كما ذكر سابقـًا.

الجواب (٣): إن النعمة ينبغي أن يصاحبها الشكر، والشكر[١] أول ما يجب فيه إضافة النعمة إلىٰ المنعِم، أما النقمة والعقوبة فلا يصاحبها ذلك، ولأجل هذا ذكرت بصيغة تدل علىٰ التعميم.

الجواب (٤): إن المنعم عليهم هم الصلحاء، فتعيينهم وبيان حالهم يدل علىٰ المحبة لهم، أما المغضوب عليهم فهم الطلحاء، وينبغي التنفر منهم، فلا داعي لتعيينهم ولبيان حالهم أكثر؛ والحال أن "الذين" وهي موصولة فيها التعيين أكثر مما هو في "الألف واللام".

﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾: صيغةُ مفعولٍ لـ الـ"غضب"، والغضب من صفات الله تعالىٰ، ومن لوازمه العقاب، واللعن، وعدم الرضا، وهي من صفات الجلال والعظمة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما الغضب كصفة للمخلوق فتعني عدم الرضا والغصة، وهي تتولد من فوران الدم، ولذا تعالج بالماء وبالإلقاء علىٰ الأرض -كما ورد ذلك في الأحاديث-، يقول أبو حيان في البحر المحيط: "تَغَيُّرُ الطَّبْعِ لِمَكْرُوهٍ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْإِعْرَاضِ لِأَنَّهُ مِنْ ثَمَرَتِهِ"[٢]؛ فالصفة

---

(١) نهاية ص٢٧ / ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) تفسير البحر المحيط: ص٥٠ / ١ (المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

هذه لله تعالىٰ علىٰ حقيقتها، كما أنها علىٰ حقيقتها للإنسان؛ لكن لا تشابه البتة بين صفات الله تعالىٰ وصفات المخلوقين.

هذا، وقد وردت مادة الـ"غضب" وبصيغها المختلفة في القرآن الكريم (٢٤) أربعًا وعشرين مرة؛ فقد وردت كصفة لله تعالىٰ (١٥) خمس عشرة مرة[١]. ووردت كصفة للعبد أيضًا، كما في الآية (١٥٠)، من سورة الأعراف[٢]، والآية (١٥٤) منها[٣]، وفي الآية (٨٦) من سورة طه[٤]، وفي الآية (٨٧) من سورة الأنبياء[٥]، وفي الآية (٣٧) من سورة الشوري[٦]. ووردت مطلقًا كذلك؛ كما في الآية (٩٠) من سورة البقرة[٧]، وفي الآية (١٦) من سورة الشوري[٨]. ووردت مبنيًا للمجهول أيضًا؛ كما في الآية هذه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

---

(١) منها قوله تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾. الآية (١١٢) من سورة آل عمران، وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾، الآية (٩٣) من سورة النساء، وقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾، الآية (٦٠) من سورة المائدة.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

(٣) قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾.

(٤) قال تعالىٰ: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

(٥) قال تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾.

(٦) قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧﴾.

(٧) قال تعالىٰ: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾.

(٨) قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦﴾.

الألفاظ المرادفة للغضب: إضافة إلىٰ ذكر "غضب" في القرآن الكريم، هناك ألفاظ مرادفة لها في المعنىٰ كلفظة: "الانتقام"، و"العذاب"، و"العقاب"، و"اللعنة"، و"السخط". نعم، إن في معانيها لفرقا يسيرا:

فـ "الانتقام" يكمن فيها معنىٰ الكراهية المصاحبة لأخذ الثأر سواء كانت بغصة أو بغيرها.

و"العذاب" يكمن فيها معنىٰ العقوبة وإزالة الحالة؟ سواء كانت مصاحبة للكراهية أو لم تكن.

و"العقاب" يكمن فيها معنىٰ الجزاء بعد اقتراف الذنب، وهي عامة كـ العذاب.

و"اللعنة" يكمن فيها معنىٰ البعد عن الرحمة الخاصة في صفات الله تعالىٰ، والدعاء عليه بالشر في صفة للمخلوق، سواء كانت مصاحبة للعقوبة أو لم تكن.

و"السخط" يكمن فيها معنىٰ الغصة سواء كانت مصاحبة للعقاب[1] أو لم تكن؛ أما "الغضب" فتكمن فيها هذه المعاني كلها، ولأجل ذلك فقد خصت صفة الغضب هنا بالذكر.

من هم "المغضوب عليهم"؟ ومن هم "الضالون"؟

[القول الأول:] "المغضوب عليهم" هم اليهود، و"الضالين" هم النصارىٰ، وقد ذُكر هذا في رواية رواها الترمذي، والإمام أحمد، وابن أبي حاتم، كما أورده ابن كثير، وقال: قال الترمذي: حديث حسن غريب.

---

(١) نهاية ص٢٨/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

هذا، وقد كتب أبو إسحاق الحويني علىٰ تعليق ابن كثير هذا مُعَلِّقًا مِن أنّ الحديث يدور علىٰ عبَّاد بن حُبَيْشٍ الراوي، فقد وثقه ابن حبان، والهيثمي، لكن ابن القطان، والذهبي، قد رأياه مجهولاً؛ كما أن في سنده اختلافا.

وأقول أنا: إن الإمام الترمذي لم يصحح الحديث، واكتفىٰ بتحسينه لأجل ذلك، ولعل المراد منه أنه حسن لغيره كذلك.

أما الأحاديث الموقوفة التي نقلها ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فإن بعضها ضعيفة، وبعضها منقطعة؛ لكن هذا القول تؤيده آيات قرآنية؛ فذُكر الغضبُ مصاحبًا لليهود في الآية (٦١) من سورة البقره[١]، وإطلاق الضلالة علىٰ النصارىٰ في الآية (٧٧) من سورة المائده[٢].

القول الثاني: "المغضوب عليهم" هم من أظهروا الكفر، و"الضالين" هم المنافقون، وقد ذكره الشربيني في تفسير "السراج المنير".

القول الثالث: "المغضوب عليهم" هم المنحرفون عمليًا، و"الضالين" هم المنحرفون عقديًا، وهذا القول ذكره الإمام الرازي في التفسير الكبير.

القول الرابع: "المغضوب عليهم" هم مَن ضَلُّوا بعِلمٍ، و"الضالين" هم مَن ضَلُّوا بغير عِلْمٍ، ذكره الإمام الرازي، وابن كثير.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

القول الخامس: "المغضوب عليهم" هم من كفروا جاحدين، و"الضالين" هم من كفروا جاهلين، ويرجع هذا القول إلىٰ القول الرابع.

سؤال: إذا ثبت وبالحديث المرفوع أن "المغضوب عليهم" هم اليهود، و"الضالين" هم النصارىٰ؛ فالمفسرون بذكرهم لأقوال أخر لِمَ تجاوزوا هذا الحديث؟!

الجواب (١): قد ذَكَرْتُ أن الحديث في إسناده مقال، ولم يصح؛ أما الآيات فجاء فيها ذكر الغضب والضلال مصاحبًا للفريقين، وذلك لا يدل علىٰ التخصيص.

الجواب (٢): إن ذكر اليهود والنصارىٰ في الحديث قد ورد كمثال[١] ولم يرد تخصيصًا للمصداق. وتخصيص الشيء بالذكر لا يدل علىٰ نفي ما سواه؛ والدليل علىٰ هذا الجواب هو: أن الغضب قد ذكر في القرآن مصاحبًا لأسبابه -كما سنذكرها لاحقًا -، وهذه الأسباب قد توجد في غير اليهود والنصارىٰ كذلك، فعُلِم منه أن كل مَن وُجِد فيه هذه الأسباب -كلها أو بعضها- فإنه يدخل بذلك في "المغضوب عليهم" و"الضالين".

أسباب الغضب:

الأول: تبديل نعمة الله تعالىٰ[٢].

الثاني: الكفر بآيات الله تعالىٰ[٣].

---

(١) نهاية ص ٢٩ / ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٢) يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾. الآية (٢٨) من سورة إبراهيم.

(٣) يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية (٦١) من سورة البقرة.

الثالث: قتل الأنبياء عليهم السلام[١].

الرابع: عصيان الله تعالىٰ[٢].

الخامس: مجاوزة حدود الشرع، كما في الآية (٦١) من سورة البقرة[٣].

السادس: الكفر بالقرآن عنادا، كما في الآية (٩٠) من سورة البقرة[٤].

٧- قتل المؤمن عمداً، كما في الآية (٩٣) من سورة النساء[٥].

٨- كُرْهُ دينِ الله تعالىٰ، والطَّعْنُ فيه، كما في الآية (٦٠) من سورة المائدة[٦].

٩- الفرار من القتال يوم الزحف، كما في الآية (١٦) من سورة انفال[٧].

---

(١) يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾. الآية (١١٢) من سورة آل عمران.

(٢) يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ الآية (٩٣) من سورة النساء.

(٣) قال تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

(٤) قال تعالىٰ: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾﴾.

(٥) قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾.

(٦) قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾.

(٧) قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

١٠- الافتراء علىٰ الله تعالىٰ، كما في الآية (١٤٢) من سورة الأعراف[١].

١١- مجادلة الموحدين علىٰ الأسماء الشركية للآلهة المزعومة، كما في الآية (٧١) من سورة الأعراف[٢].

١٢- خُلْفُ الوعد مع نَبِيٍّ، كما في الآية (٨٦) من سورة طه[٣].

١٣- الطغيان برزق الله تعالىٰ، كما في الآية (٨١) من سورة طه[٤].

١٤- الارتداد عن الإيمان بالله، كما في الآية (١٠٦) من سورة النحل[٥].

١٥- المحاجة في الله تعالىٰ، كما في الآية (١٦) من سورة الشوري[٦].

١٦- اليأس، وإنكار البعث بعد الموت، كما في الآية (١٣) من سورة الممتحنة[٧].

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

(٣) قال تعالىٰ: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

(٤) قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾.

(٥) قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

(٦) قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

(٧) قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

١٧ – ظن السوء بالله تعالىٰ، كما في الآية (٦) من سورة الممتحنة[١].

هذا، وتوجد هذه الأسباب في أصناف مختلفة من الناس؛ كالمشركين، والمنافقين، والكفار المعاندين، والمرتدين، وقاتل المؤمن عمداً، واليهود، والفارين من ساحة القتال، والمجادلين عن الأسماء الشركية.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾: هذا معطوف علىٰ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهو تحت ﴿غَيْرِ﴾، و "لا" لتأكيد النفي، فلو لم يذكر فيها "لا" لتوهم أن ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ معطوف علىٰ "الذين أنعمت عليهم"، فدفع هذا التوهم بإتيان "لا".

ولـ"الضلال" في اللغة العربية عشرة معان: (١) الغياب/ التغييب. (٢) الحبوط/ التبار. (٣) الموت. (٤) الدَّفن. (٥) الاستخفاء. (٦) النسيان. (٧) الضياع. (٨) السقوط. (٩) الذهاب. (١٠) الجهل. وهذه المعاني قد ذكرها ابن منظور في لسان العرب، ومؤلف القاموس.

أما الضلال في عرف الشرع فبمعنىٰ: "الانحراف عن الجادة، وطريق الحق، عمداً كان أو خطئاً"، وهذا يقابل الهداية، وقد استعمل "الضلال" في القرآن الكريم لعشرة معان بعضها لغوية، والواحدة منها شرعي:

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ٱلظَّـٰٓانِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾.

(١) بمعنىٰ النسيان، كما في الآية (٢٨٢) من سورة البقرة[١].

(٢) بمعنىٰ السَّذاجة، كما في الآية (٨) من سورة يوسف[٢].

(٣)[٣] بمعنىٰ المحبة الشديدة، كما في الآية (٩٥) من سورة يوسف[٤].

(٤) بمعنىٰ الحبوط، كما في الآية (١٠٤) من سورة الكهف[٥].

(٥) بمعنىٰ الغفلة، كما في الآية (٥٢) من سورة طه[٦].

(٦) بمعنىٰ الانحراف عن القصد، كما في الآية (٤٢) من سورة الفرقان[٧].

(٧) بمعنىٰ الجهل بالشيء، كما في الآية (٢٠) من سورة الشعراء[٨].

(٨) بمعنىٰ الضياع في الأرض والتغييب، كما في الآية (١٠) من سورة الم السجدة[٩].

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

(٣) نهاية ص٣٠/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٤) قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

(٥) قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

(٦) قال تعالىٰ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

(٧) قال تعالىٰ: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

(٨) قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

(٩) قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۢ بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

(٩) بمعنىٰ الحيرة والوحدة، كما في الآية (٧) من سورة الضحى[١]، وقد ذكر القرطبي في تفسيره للآية في سورة الضحىٰ معاني أخري لمعنىٰ الضلال هنا.

(١٠) ما يقابل الهداية من معنىٰ، وقد ورد هذا بكثرة، وهذا المعنىٰ الأخير هو المراد في الآية ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

إن مصداق كلمة ﴿ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ هم النصارىٰ -كما ذكر سابقًا-؛ لكن لَم تخصص الكلمة لهم قط؛ وهذا لأن أسباب الضلال المذكورة في القرآن الكريم كثيرة وعديدة، وهي تشمل أصنافًا كثيرة من الضالين غير النصارىٰ كذلك.

أسباب الضلال: إن أسباب الضلال المذكورة في القرآن الكريم سبعة عشر سببا بعدد ما كان للغضب من أسباب:

١- الكفر بالإيمان، كما في الآية (١٠٨) من سورة البقرة[٢].

٢- عدم العمل بالعلم، كما في الآية (٤٤) من سورة النساء[٣].

٣- التولي عن اتباع الرسول، والحلف له كاذبًا، كما في الآية (١١٣) من سورة النساء[٤].

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـُٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨﴾.

(٣) قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤﴾.

(٤) قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٤- الشرك أي نوع كان، كما في الآية (١١٦) من سورة النساء[١].

٥- الصد عن سبيل الله، كما في الآية (١٦٧) من سورة النساء[٢].

٦- الغلو في الدين -والتبديع- كما في الآية (٧٧) من سورة المائدة[٣].

٧- الكفر، كما في الآية (١٣٦) من سورة النساء[٤].

٨- اتباع الهوي، كما في الآية (٥٦) من سورة الأنعام[٥].

٩- الاعتراض علىٰ النبي والطعن فيه، كما في الآية (٤٨) من سورة الإسراء[٦].

١٠- عصيان أمر الله ورسوله، كما في الآية (٣٦) من سورة الأحزاب[٧].

١١- اتباع الأكثرية بعيداً عن الدليل الشرعي، كما في الآية (١١٦) من سورة الأنعام[٨].

١٢- القنوط من رحمة الله، كما في الآية (٥٦) من سورة حجر[٩].

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾.

(٣) قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

(٤) قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾.

(٥) قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

(٦) قال تعالىٰ: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾.

(٧) قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

(٨) قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

(٩) قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

١٣ – دعوة غير الله لدفع الضر ودعاؤه، كما في الآية (٥) من سورة الأحقاف[١].

١٤ – اتخاذ أعداء الله أولياء، كما في الآية [١] من سورة الممتحنة[٢].

١٥ – استحباب الدنيا على الآخرة، كما في الآية (٣) من سورة إبراهيم[٣].

١٦ – قسوة القلب عند ذكر الله، كما في الآية (٢٢) من سورة الزمر[٤].

١٧ – الشك في يوم القيامة والمراء فيه، في الآية (١٨) من سورة الشوري[٥].

وبذكر هذه الآيات، وذكر أسباب الضلال، قد علمنا أن "الضالين" طوائفُ عدة:

الأولى: المرتدون.

الثانية: المشركون.

الثالثة: الكفار.

الرابعة: العاصون لله ولرسوله.

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾.

(٣) قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾.

(٤) قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(٥) قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

الخامسة: عباد الكواكب.

السادسة: المتخذون أعداء الله وأعداء الرسول أولياء.

السابعة: اليهود.

الثامنة: النصاري.

التاسعة: القانطون من رحمة الله، وهم عُبّاد المال.

العاشرة: المتبعون للهوىٰ[1]، وبهذا التفصيل ظهر أن عنوان "الضالين "لم يخصص بالنصارىٰ.

فوائد:

الفائدة (١): لما كانت لفظة "غير" صفة أو بدل "الذين" التي هي مضاف إلىٰ "صراط"، فتقدير الجملة: "صراطُ غيرِ المغضوب عليهم"؛ كما ذكره الفراء في "معاني القرآن"، وغيره من المفسرين كذلك.

أما ما ذكره ابن كثير فهو أنه قد قام المضاف إليه فيه مقام المضاف، وتقدير الجملة: "غير صراط المغضوب عليهم"؛ ففي هذا تكلف؛ لأنه يبطل المعنىٰ الأول للجملة، والذي "غير" فيها صفة "الذين" أو بدل لها، كما أنه يضر بالفائدة الثانية، وما سنذكره فيها من معنىٰ -والله أعلم-؛ فعلىٰ الأول معناه: "المنعَم عليهم لا المغضوب عليهم"، وعلىٰ الثاني فمعناه: "لا صراط المغضوب عليهم".

---

(١) نهاية ص٣١/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

الفائدة (٢): هذه الفائدة قد أشرت إليها سابقـًا، وهي: أن لفظة "غير" -والتي هي صفة- فيها إشارة إلىٰ أن "المنعَم عليهم"[١] هم مغايرون ومختلفون تمامـًا عن "المغضوب عليهم" وعن "الضالين"، أي أنهم بعيدون كل البعد عن أسباب الغضب، وعن أسباب الضلال؛ وعلىٰ هذا فالأنبياء عليهم السلام معصومون عن الغضب وأسبابه، وعن الضلال وأسبابه؛ كما أن الصَّحابة المعظَّمون وهم أتباع الرسل كذلك محفوظون في جملتهم؛ فهم يحفظون أنفسهم عن الذنوب، وإن اقترف أحدهم ذنبـًا فلا يصر عليه؛ بل يرجع عنه للتوّ ويتوب. وفي هذا رد صريح علىٰ المنكرين لعصمة الأنبياء، وكذلك علىٰ من يسب الصحابة ولا يجلهم.

الفائدة (٣): قد ذكر "المغضوب عليهم" قبل "الضالين" لأوجه عدة؛ منها: الأول: أن المغضوب عليهم مصداقه الأوَّلي هم اليهود، وهم أسبق زمانـًا من النصارىٰ الذين هم المصداق الأوَّلي للضالين. الثاني: أن اليهود هم أقرب موطنـًا للمدينة من النصارىٰ. الثالث: أن المقابلة بين الغضب والنعمة ظاهرة، وكذلك الضلال-أيّ ضلال-فيقابله الهداية؛ فمن الحسن اللفظي والمعنوي أن تذكر الألفاظ المتقابلة بعضها قِبل بعض.

الفائدة (٤): قد ذكر "المغضوب عليهم" بصيغة المفعول، أما "الضالين" فذكره بصيغة اسم الفاعل؛ ووجه الفرق بينهما: أن أسباب الغضب وإن كانت في نطاق كسب الإنسان لكن نزول الغضب لا خيار للإنسان فيه[٢]؛ ففي ذكره بصيغة المفعول إشارة إلىٰ عدم

---

(١) وهم جماعة الأنبياء عليهم السلام، والصحابة الكرام. (المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ)

(٢) نهاية ص٣٢/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

الاختيار، أما أهل الضلال فإنهم قد كسبوا الضلال واختاروها بدلاً عن الهداية، فلو كان ذكرهم بـ اسم المفعول -"المضَلّين"-لتوهم أنهم قد كانوا مكرهين علىٰ الضلال، ومعذورين فيها، والحقيقة أنهم لم يكونوا كذلك. ففي هذا رد علىٰ الجبرية الذين ينكرون نسبة الأفعال حقيقة إلىٰ العبد، ويقولون إنها مجاز؛ كما كان في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ردًّا عليهم.

الفائدة (٥): ورود "ولا الضالين" بـ "لا"، ولا بـ "غير": قد ذكرنا فائدة ورود "لا" ههنا سابقـًا؛ أما وجه عدم ورود "غير" فمن وجوه: الأول: أن في "لا" إيجاز في الكلام أكثر؛ لقلة حروف "لا" عن حروف "غير". الثاني: حفظ الكلام عن تكرار اللفظة الواحدة فيها؛ وذلك لأنه لو وردت "غير" بدلاً عن "لا" لكررت أكثر مِن مرة وفي جملة قصيرة، ولثقل ذلك علىٰ اللسان. الثالث: لورود الآية علىٰ هذه الصورة هدفان كبيران: أحدهما: المغايرة [بين المنعَم عليهم وبين غيرهم]، وقد حصل ذلك بورود لفظة "غير" ولمرة واحدة. والهدف الثاني: هو النفي، ولفظة "لا" أكثر وضوحـًا فيه من لفظة "غير".

الفائدة (٦): يُسْتَحب لقارئ سورة الفاتحة أن يقول بعد الانتهاء من قراءتها "آمين"، سواء كان خارج الصلاة أم داخلها؛ لكن في الصلاة أوكد، أي أنها سنة مؤكدة، والدليل علىٰ ذلك: أن أحاديث قول "آمين" بعضها عامة لم تذكر فيها الصلاة ولا غيرها، كما أن بعضها خاصة بالصلاة، وحمكها واحد للمنفرد، والإمام، والمقتدي، فإذا انتهىٰ المقتدي من قراءة الفاتحة وسمع قول الإمام "آمين" يقول هو كذلك "آمين" بصوت مرتفع، وهذا ما ذهب إليه أكثر أهل العلم؛ أما الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد كان يري أنه ليس علىٰ الإمام أن يقول ذلك

-أي آمين-، ودليله في الموضوع حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المذكور في الموطأ لمالك[١]، وحديث أبي موسىٰ الذي رواه الإمام مسلم[٢]، حيث لم يرد فيهما قول الإمام "آمين"؛ لكن في الرواية المتفق عليها[٣] فقد ورد فيها ذكر "تأمين" الإمام؛ وهذه زيادة لثقة؛ كما أن في هذه الرواية التفصيل وفي الأولىٰ الإجمال؛ فيقدم المفصل علىٰ المجمل.

مسألة الجهر بالتأمين" والإخفاء به: قد اتفق أهل العلم علىٰ أن هذين الأمرين كلاهما جائزان، فلا يطلق عليهما الإثم أو البدعة[٤]؛ بل الاختلاف في الأفضلية، كما ذكر الإمام ولي الله الدهلوي -رحمة الله عليه- في [كتابه:] حُجَّة الله البالغة[٥]؛ لكن إذا وصل أن أصحاب كل طرف يرفع ذلك إلىٰ أهمّ الواجبات، فمِن ثَمّ يَذكُرُ الطّرفَ الآخر بالسوء، ويسخر منه؛ فبهذا يصير بدعة.

ففي زماننا هذا، وفي هذه البلاد قد وصل التّعصّب للمذاهب إلىٰ حد أن البعض يسخر من الجهر بالتأمين، ويشبهه بصوت الحيوان، ويعامل الجاهرَ به معاملة العدوّ؛ فإن هذا استهزاء بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطعًا؛ لهذا السبب، ولأجل إزالة شبهات هؤلاء

---

(١) رواه مالك في الموطأ رواية ابن القاسم ح (٤٢٩).

(٢) ح (٤٠٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، ح (٧٨٠)، ومسلم في صحيحه، ح (٤١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولفظه: «**إذا أمَّن الإمام فأمنوا**...».

(٤) نهاية ص٣٣/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٥) حجة الله البالغة: (١/ ١٥٩). المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

المتعصبين، أضطر إلىٰ بيان المسألة بشيء من التفصيل، رغم عدم وجود مناسبة بينها وبين هذا التفسير.

أدلة الجهر بالتأمين والاستدلال بها: الدليل الأول: حديث ذكره الإمام البخاري في أدلة الجهر بالتأمين: «**إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ، فَأَمِّنُوا**»[١]، وفي حديث آخر: «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ**: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **فَقُولُوا: آمِينَ**»[٢]. قال ابن حجر: "وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنِ التَّأْمِينُ مَسْمُوعًا لِلْمَأْمُومِ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ وَقَدْ عُلِّقَ تَأْمِينُهُ بِتَأْمِينِهِ"[٣]. وقال ابن القيم في إعلام الموقعين: "وَلَوْلَا جَهْرُهُ بِالتَّأْمِينِ لَمَا أَمْكَنَ الْمَأْمُومُ أَنْ يُؤَمِّنَ مَعَهُ وَيُوَافِقَهُ فِي التَّأْمِينِ"[٤]. وقال ابن حجر في شرحه للحديث الثاني: "في الحديث أمرٌ بالقولِ بالتأمين، والقول إذا وقع خطابا مطلقا يحمل علىٰ الجهر، وأيضا علق قول المأموم بقول الإمام، والإمام يقوله جهرا، فليكن قول المأموم أيضا جهرا للموافقة في الصفة"[٥]، وذكر أوجه أخرىٰ.

---

(١) صحيح البخاري: ح (٧٨٠).

(٢) صحيح البخاري: ح (٧٨٢).

(٣) فتح الباري: (٢/ ٢٦٤).

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين:(٢/ ٢٨٧)..

(٥) فتح الباري: (٢/ ٣١١).

الدليل الثاني: حديث وائل ابن حُجْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه الإمام الترمذي، وابن ماجه، والدارمي، والبيهقي، والدارقطني، وأحمد، وأبو داود، وغيرهم، وفيه «**مَدَّ بها صوتَه**»، وفي رواية «**ورَفَع بها صوتَه**»، وحسنه الترمذي.

وقال ابن القيم في إعلام الموقعين: (صحيح الإسناد) [١]، وصححه كذلك الحافظ ابن حجر في التلخيص [٢].

و «**مَـدَّ**» بمعنىٰ: رَفَعَ وجَهَرَ؛ كما هو في رواية أخرىٰ، واختار هذا القول الشيخ عبد الحق الدهلوي الحنفي أيضـًا، وللجهر بالتأمين أدلة أخرىٰ كذلك، ومنها ما ذكره الترمذي من حديث علي، وأبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إشارة، ورواه الحاكم، والبيهقي، والدارقطني، وقال البيهقي: (حسن صحيح)، وسكت عليه الحافظ الزيلعي أيضـًا، وذكر أحاديث أخرىٰ أيضـًا لإثبات الجهر بالتأمين، وإن كان فيها كلام مِن جهة أسانيدها.

أدلة الإخفاء بالتأمين وتنقيحها: **الدليل الأول**: حديث شعبة، وورد فيه: «**أخفىٰ بها صوتَه**»، رواه الإمام أحمد، وأبو داود الطيالسي، وأبو يعلىٰ، وأورده الحاكم، والترمذي، بلفظ: «**خفض بها صوتَه**»؛ ولكن هذا الاستدلال ضعيفٌ لوجوه كثيرة:

الوجه الأول: أن الإمام الترمذي قال: سَمِعْت مُحَمَّدًا يَقُولُ: "حَدِيثُ سُفْيَانَ أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ فِي هَذَا، وَأَخْطَأَ شُعْبَةُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ"[٣].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (٢/ ٢٨٧).

(٢) نهاية ص٣٤/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

(٣) سنن الترمذي: (٢/ ٢٧).

والوجه الثاني: أيضا قول الترمذي: "وَسَأَلْتُ أَبَا زُرْعَةَ عَنْ هَذَا الحَدِيثِ، فَقَالَ: "حَدِيثُ سُفْيَانَ فِي هَذَا أَصَحُّ"[1].

والوجه الثالث: أن الإمام الترمذي نقل في باب تعليم القرآن عن يحيىٰ بن سعيد أنه قال: "مَا أَحَدٌ يَعْدِلُ عِنْدِي شُعْبَةَ، وَإِذَا خَالَفَهُ سُفْيَانُ أَخَذْتُ بِقَوْلِ سُفْيَانَ".

الوجه الرابع: أن الذهبي نقل في تذكرة الحفاظ عن صالح جزرة، وأبي حاتم، وأبي زرعة، وابن معين، أنهم قالوا: (سفيان أحفظ من شعبة).

الوجه الخامس: أن لسفيان متابعين في هذه الرواية، وهم علاء بن صالح، وعلي بن صالح، ومحمد بن سلمة، وإن كان الأخير ضعيفا، ولا متابعَ لِشُعبة.

الوجه السادس: أن الزيلعي نقل في نصب الراية عن البيهقي رواية شعبة موافقة لرواية سفيان، يعني رافعا بها صوته. وقال البيهقي في المعرفة: (سند هذه الرواية صحيح)؛ فيمكن أن شعبة رجع عن الرواية الأولىٰ.

وأما الأجوبة التي أجاب بها العلامة العيني عن اعتراضات الترمذي ليس أي واحد منها مفيدا لإثبات المسألة.

الدليل الثاني للإخفاء بالتأمين: قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "**أربع**[2] **يخفيهن الإمام؛ أحدها: آمين**". ونُقِلَ مثلُه في كتاب الآثار عن إبراهيم النخعي؛ ولكن الاستدلال بالحديث

---

(١) سنن الترمذي: (٢/ ٢٧).

(٢) نهاية ص٣٥/ ١ من الأصل بلغة البشتو.

الموقوف والمقطوع خطأ في مقابل الحديث الصحيح المرفوع، قال الشيخ عبد الحي اللكنوي في السعاية: "أثر النخعي وغيره لا يقاوِم مقابِل الروايات المرفوعة".

الدليل الثالث: روىٰ الإمام الطحاوي عن عُمَرَ وعلىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما ما كانا يجهران بالتأمين. لكن هذا الأثر ضعيف؛ لأن في سنده سعيد بن المرزبان البقال، وذَكَرَ الذهبي في الميزان: أنه متروك، ومنكرُ الحديث.

فبعد الموازنة بين هذه الأدلة عُلِمَ أنّ الجهر بالتأمين أفضلُ وسُنَّة؛ فلذلك قال الشيخ عبد الحي اللكنوي في السعاية: "إن الجهر بالتأمين أصح؛ لأنه موافق لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورواية خفض الصوتِ ضعيفةٌ لا تقاوِمُ روايات الجهر؛ ولو سلم أن رواية الخفض صحيحة، فالمراد الخفض القليل، وليس المراد من الجهر الصياح؛ كما أشار إلىٰ هذا ابن الهمام، وأي ضرورة مِن أن تحمل أحاديث الجهر علىٰ بعض الأوقات أو علىٰ التعليم، وأي حاجة إلىٰ القول بأن الجهر كان في الوقت الأول، وهذا كلام في غاية الضعف، أجاب الأحناف بهذه الأجوبة، وأثر النخعي وأمثاله لا تقاوم أمام الروايات المرفوعة".[1]

الحمد لله، انتهىٰ تفسير سورة الفاتحة[2].

❀❀❀

(١) السعاية: (٢/ ١٧٦). المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) نهاية ص٣٦/ ١ من الأصل بلغة البشتو.